د. أحمد الخميسي

رائحة الخبز

رائحة الخبز

أحمد الخميس

الفهرس

تقديم

هذه خمس عشرة قصة روسية سوفيتية توقفت عند كل منها خلال قراءاتى بالروسية معجباً متذوقاً وليس لأننى كنت أخطط لترجمة عمل ما وأتخير له ما يفعل المترجمون عادة. وكنت أحس بالراحة بعد انتهائى من ترجمة هذه القصة أو تلك فى أوقات متفرقة، ثم أضعها فى ناحية وأنساها مع أوراق أخرى كثيرة دون أن أسعى لنشرها حتى فى المجلات. هذا إلى أن بدأت فى اكتشاف "يورى كازاكوف" وعالمه المجهول لنا بالكامل تقريباً، ثم أندريه بلاتونوف. وكان الكاتبان العملاقان يخضعان مع آخرين كثيرين للحظر، والنشر بكميات محدودة للغاية تباع نسخها داخل موسكو فى الأسواق الحرة بالعملة الصعبة للأجانب فقط. حينذاك قررت أن أجمع تلك القصص لنشرها يوماً ما، لعلى ألفت نظر القارئ إلى هذين الكاتبين على الأقل.

كان تشيخوف معروفاً رغم أنه لم يترجم عن لغته الأصلية سوى مرة واحدة فى مختارات فى أربعة مجلدات بفضل جهد الأخ أبو بكر يوسف، ومع ذلك اكتشفت أن هناك

بعض قصص تشيخوف ممنوعة من التداول مثل قصة "كمان روتشيلد" التى اعتبرتها الأوساط الصهيونية فى روسيا تحقيراً لليهود فحرصت على حذفها، وكانت هناك نصوص أخـرى كاملة لعملاق آخر هو فلاديمير دستويوفسكى صاحب رواية "الأبله" و"الأخوة كارامازوف" ممنوعة من النشر مثل مقالتـه الشهيرة عن "المسألة اليهودية" بل وكانت العودة إلـى تلـك المقالة فى المكتبات تستلزم تصريحاً خاصاً وتفسيراً لدواعى قراءتها! ومع مطلع عام ١٩٨٥ أوائل البيرسترويكا (إعـادة البناء) أخذت أسماء الكتاب المحظورين تتقدم الصفوف، فقفز اسم الشاعرة آنا آخماتوفا، وزوجها نيكـولاى جوميليـوف الشاعر الذى قتل فى محاكمة صورية بتهمة ملفقة، ثم أسماء ميخائيل بلجاكوف، وميخائيل زوشنكو، وطابور كامـل مـن كبار الكتاب كانت أفضل أعمالهم وأجمل سنوات أعمـارهم حبيسة فى خزائن حديدية باتحاد الكتاب ربع قرن. ولم يعـد للقارئ الروسى من هم سوى مصافحة هذا الصف الطويـل الذى انبعث من الماضى ليقول الحقيقة. وكانت مأساة معظـم أولئك الكتاب أن بعضهم كان من أشد المخلصين حقاً للثورة الاشتراكية، أو أنهم المخلصون لها فعلاً. وعلى سبيل المثال

فقد عاش أندريه بلاتونوف حياة فقيرة اضطرته للتخلى مبكراً عن المدرسة من أجل إطعام أخوته. وتقلب بلاتونـوف فـى مختلف المهن، وكان يخرج ببذلة واحدة لا يبـدلها. وتمكـن الكاتب العملاق على مدى ربع قرن من خلق عالم كامل تألق فى مئات القصص القصيرة النادرة المثال، وأربع مسرحيات، وتسع قصص طويلة. وفيما بعد اعترف الروائـى العـالمى أرنست همنجواى أنه لم يكن ليكتب "العجوز والبحـر" مـن دون أن يقرأ أندريه بلاتونوف! وكان بلاتونـوف أول مـن كشف عن "عدم بساطة البسطاء" الذين يجـرى اختصـارهم أحياناً كثيرة فى صور بشر يسعون من أجل خبزهم، مؤكـداً أن كل إنسان وجه لا يتكرر ولغـز ينبغـى حلـه. وتـوفى بلاتونوف فقيراً ومحظوراً بعد أن شن النقد الرسـمى عليـه حملة متهماً إياه بأنه "يلهث وراء التجديد مهما تكلف ذلـك، ويكتب بشكل معقد بدلاً من البساطة والوضوح" رغم أنه فى اعتقادى أجدر الأسماء فى تاريخ القصة الروسية بالانتباه بعد أنطون تشيخوف.

هناك كتاب آخرون مثل ميخائيل زوشنكو الذى كان يسخر بلا هوادة من كافة الظواهر السلبية فأجبرتـه الدولـة

على الصمت بعد أن شنت حملتها على المبـدعين والعلمـاء عام ١٩٣٧ فكف عن الكتابـة وانكسـرت روح السـخرية مفسحة المجال فقط للمرارة العميقة.

وعلاوة على ذلك تضم هذه المجموعة نمـاذج مـن أفضل أعمال رواد كبـار لمـدارس أدبيـة مختلفـة مثـل قنسطنطين باوستوفسكى برومانسيته الرقيقـة ونفـوره مـن الجلافة التى تسود الحياة اليومية، وهناك من رواد الواقعيـة التقليدية العملاق إيفان بونين، وألكسى ريميـزوف ويـورى تيريتينوف اللذان ينتميان للاتجاهات الحديثة. لكنـى أرجـو القارئ أن يتوقف باهتمام عند اندريـه بلاتونـوف وقصـة "أوليا"، وكذلك عند يورى كازاكوف الذى نقدم لـه قصـتين "رائحة الخبز" و"كان بكاؤك فى الحلم مريراً".

وقد أنهى كازاكوف دراسته فى معهد جوركى للأدب عام ١٩٥٨، وفى نفس العام صدرت له مجموعته القصصية الأولى "مانكا"، ثم مجموعته الثانية "عند محطة القطار" عـام ١٩٥٩، ويكشف كازاكوف عن اهتمام خاص بالطبيعة يعيـد إلى الأذهان الصفحات الرائعة التى خطها تورجنيف. مع ذلك فإن هم كازاكوف الأول هو ذلك الجزء الواعى من الطبيعـة

أى الإنسان. وفى رائعته "كان بكاؤك فـى الحلـم مريـراً" سيرتطم القارى بعنف بكل ما هو مؤلم فـى حقيقـة مـيلاد الإنسان وموته. هذه القصة تـدفعك بالقـدرة علـى التقـاط التفاصيل والدقة المذهلة فى وصفها إلى تذكر قطع الحريـر الصغيرة التى يزخرفون فوقها مدينة كاملة بأعمدتها ونسائها وعرباتها، فتنظر إليها مندهشاً: كيف يمكن الاحتفـاظ بـذلك العالم المنمنم حياً ومكثفاً إلى هذه الدرجة؟ وما الذى قاد بطل هذه القصة تحديداً إلى الانتحار؟ ومن أين يتدفق كـل هـذا الحزن وكل هذه الشاعرية؟

ذات يوم قال أبو طالب غفـوروف وهـو شـاعر داغستانى كبير: "لا تطلق رصاص مسدسك على الماضـى، لكى لا يفتح المستقبل عليك نيـران مدافعـه". وقـد أثبتـت القصص والقصائد التى ظلت ممنوعة لسنوات طويلـة أنهـا قادرة على البقاء أبعد من البشر، ومن الدول، لأنها تختـزن أجمل ما فى الحياة: الأحلام.

د. أحمد الخميسى

رائحة الخبز

وصلتهم البرقية فى الأول من يناير. كانت دوسيا فى المطبخ حينذاك، فاتجه زوجها ليفتح باب الشقة: فى ملابسـه الداخلية، مخدراً من جرعة الخمر الصباحية، لا يسـتطيع أن يقاوم التثاؤب، وقع باستلام البرقية وهو يفكر: ممن يمكن أن تكون هذه التهنئة؟. وهكذا، وهو يتثاءب انتهى من قراءة تلك البرقية القصيرة التى تعزيه فى وفاة والدة دوسـيا: العجـوز التى تناهز السبعين فى القرية النائية.

"ليس هذا وقتها!" ـ فكر مفزوعاً، ونادى زوجته. لم تبك دوسيا، فقط أصبح لونها شاحباً قليلاً، واتجهت بعد ذلـك إلى الغرفة عدلت من وضع المفرش على المنضدة وجلست. وألقى زوجها نظرة زائغة على بقايا الخمر فـى الزجاجـة القائمة على المنضدة، وصب لنفسه وعب. ثم فكر، وصـب لدوسيا كأساً. قال لها:

ـ اشربى! يخرب بيت رأسى سـينفجر. أوه.. أوه. سنلحقها جميعاً. ماذا ستفعلين؟ هل ستذهبين إلى القرية؟

لزمت دوسيا الصمت، ومسحت المفرش بباطن يدها،

ثم تجرعت الكأس، واتجهت إلى السرير كالعمياء، ورقـدت. وبعد دقيقة صمت تمتمت:

ـ لا أدرى.

اقترب زوجها منها وتطلع إلى بدنها المكور الممتلئ.

ـ طيب.. ما العمل؟ ما الذى يسعنا عمله! ـ لم يدر بعد ذلك ما الذى يمكن قوله، فعاد إلى المنضدة وصب لنفسه كأساً أخرى: ـ لها الجنة. مسيرنا كلنا إلى هناك.

ظلت دوسيا طيلة اليوم تتمشى هامدة داخل الشـقة. رأسها مصدع، ولم تقم بزيارة مـن ينتظرونهـا. سـاورتها الرغبة فى البكاء، ولكنها لم تستطع البكاء، كانـت ببسـاطة حزينة فحسب. لم تر دوسيا أمها منذ خمس عشـرة سـنة، وكانت قد غادرت القرية قبل ذلك ولم تعـد تتـذكر أبـداً ـ تقريباً ـ شيئاً من حياتها الماضية. وعندما كانت تتذكر شيئاً كان ذلك على الأغلب من طفولتهـا المبكـرة، أو لحظـات مرافقة الشباب لها من نادى القرية إلى البيت عنـدما كانـت شابة.

أخذت دوسيا تقلب الصور القديمة، ومن جديـد لـم

تستطع البكاء: كان وجه أمها فى كل الصور متوتراً وغريباً، وعيناها جاحظتين، وذراعاها الثقيلتان الغامقتان مسدلتين إلى جنبيها.

فى الليل تحدثت دوسيا طويلاً مع زوجها، وهى راقدة على السرير، ثم قالت له قرب النهاية:

ـ لن أسافر إلى القرية! إلى أين أذهب؟ الجو بارد هناك الآن.. أما الأشياء البالية الباقية هناك فالأرجح أن أقاربنا قد تخاطفوها. أقاربنا هناك كثيرون بما يكفى. كلا.. لن أسافر!

ـ ٢ ـ

انقضى الشتاء، ونسيت دوسيا أمها. وكـان زوجهـا يعمل بشكل جيد، وانغمس الاثنان فى غبطة، وصارت دوسيا أجمل وأكثر امتلاء. لكن مع حلول شهر مايو تلقت دوسـيا خطاباً من ميشا ابن أختها. وكان واضحاً مـن خـط ميشـا المائل على الورق أن أحداً من الكبار أملى عليه الخطـاب. نقل ميشا لخالته دوسيا التحايا من الأقارب الكثيرين وكتب أن بيت جدته وأشياءها فى الحفظ والصون وأنه لابد من حضور دوسيا إلى القرية.

قال لها زوجها:

ـ سافرى! اذهبى. ولا تجهدى نفسك، بيعـى كـل الأشياء التى ستجدينها هناك بسـرعة، وإلا فـإن الآخـرين سيستخدمونها، أو أن الكلخوز سيضع يده عليها.

وسافرت دوسيا. لم تكن قد سافرت منذ زمن بعيـد إلى أى مكان. وكانت المسافة طويلة، فتمكنت كما ينبغى من الاستمتاع بالطريق، وتحدثت وتعرفت إلـى كثيـرين فـى القطار. ومع أنها أرسلت برقية إلا أن أحداً لـم يكـن فـى

استقبالها. واضطرت إلى السير على قدميها، لكنها وجـدت متعة فى ذلك. كان الطريق مرصوفاً متساوياً امتـدت علـى جانبيه حقول اقليم سمولينسك العزيزة محفوفة عنـد الأفـق بأحراش سماوية اللون.

وبلغت دوسيا قريتها بعد ثلاث ساعات، وتوقفت عند الجسر الجديد المقام فوق النهر وتطلعت أمامها. كبرت القرية بشكل ملحوظ، وانتشرت بعرضها المزارع إلى درجة كـان من الصعب معها التعرف إلى القرية. ولم تسترح دوسيا إلى ذلك التغيير. مضت بعد ذلك فى الشـارع تـتفحص وجـوه المارة فى طريقها، وتحاول أن تخمن من عساهم أن يكونوا. لكنها لم تتعرف إلى وجه أحد. إلا أن الكثيرين تعرفوا عليها، وتوقفوا، وأعربوا عن دهشتهم لأنها كبرت هكذا.

وسعدت الأخت بقدوم دوسيا، بكت قليلاً ثم هرعـت تعد سيماور الشاى. وأخذت دوسيا تخرج الهدايا الصغيرة من حقيبتها. ونظرت الأخت إلى الهدايا ثم سالت دموعها مـرة أخرى واحتضنت دوسيا. أما ميشا الصغير فكان جالساً على الكنبة مندهشاً: لم تبكيان؟

وجلست الأختان تحتسيان الشاى، وعلمت دوسيا أن الأقارب قد تقاسموا فيما بينهم الكثير من الأشياء التى تركتها أمها. أختها أخذت الخنزير، والبقرات الـثلاث، والمـاعز، والدجاج. فى البداية تضايقت دوسيا ـ فـى نفسـها ـ ثـم نسيت، ولاسيما أن الكثير ما زال موجوداً، وخاصة البيـت نفسه. وبعد أن انتهت الأختان من شرب الشاى وشبعتا مـن الحديث اتجهت الاثنتان إلى البيت لمشاهدته. وكانت الضيعة الصغيرة الملحقة بالبيت محروثة. اندهشت دوسيا، لكن أختها قالت إن الجيران هم الذين حرثوها لكى لا تضـيع فرصـة غرسها. ولم تجد دوسيا البيت بالوسع الذى تصورته والـذى تذكره به. كانت الشبابيك مسمرة بألواح خشبية، ومن البـاب تدلى قفل حديدى. ظلت الأخت تحاول طويلاً فتح القفل، ثـم تقدمت دوسيا تجرب، ثم أختها مرة أخرى، وتعبت الأختـان حتى فتحتا القفل.

كانت الظلمة تعم البيت، والضوء يتسرب بالكاد مـن الشبابيك عبر الألواح الخشبية، والرطوبة تنشع من جو البيت الذى بدا مهجوراً، إلا أن المكان كان يعبق برائحـة الخبـز: الرائحة المقربة للنفس منـذ الطفولـة. ودق قلـب دوسـيا.

وراحت تذرع أرض الغرفة، تجول فيما حولها بعينيها اللتين أخذتا تعتادان العتمة. كان السقف منخفضاً بطلاء بنى غامق، والصور مازالت معلقة على الجـدران، ولكـن الأيقونـات اختفت ماعدا واحدة، واختفت المفارش المطرزة مـن فـوق المدفأة والصناديق.

عندما صارت دوسيا وحدها فى البيت فتحـت أحـد الصناديق فانبعث منه عطر أمها. فـى الصـندوق طويـت جونلات قديمة غامقة اللون، وفساتين بلا أكمـام ومعطـف حائل اللون من صوف الخرفان. أخرجت دوسيا كـل هـذا، ألقت عليه نظرة، ثم خرجت من البيت ودارت حوله، وحدقت فى الحوش الفارغ، وبدا لها أنها شاهدت كل هذا من زمـن بعيد فى حلم ما، وأنها تعود الآن إلى ذلك الحلم.

- ٣ -

تدفق الجيران على دوسيا ما أن سمعوا أنهـا تبيـع لوازم البيت. كانوا يقلبون ويتفحصون كل شىء بدقة، ولكن دوسيا لم تكن تطلب الكثير، ولذلك بيعت الأشـياء بسـرعة. المهم هو البيت! وعرفت دوسيا بأسعار البيوت، ودهشـت، وأحست بالسعادة لارتفاع أثمان البيوت. وعلى الفور وجدت ثلاثة مشترين، اثنين من نفس القرية، والآخـر مـن قريـة مجاورة. لكن دوسيا لم تتسرع فى بيع البيت. كانت تخشـى أن تكون أمها قد أخفت بعض المال فى مكان مـا بالبيـت. وفتشت عن ذلك المال ثلاثة أيام متصلة: دقت على الجدران، وتحسست مراتب النوم، وهبطت إلى القبو، وصـعدت إلـى العلية، لكنها لم تجد شيئاً. وعندما اتفقت دوسيا مع المشترى على السعر اتجهت إلى إدارة المنطقة، وسجلت عقد البيع فى الشهر العقارى، ثم أودعت المبلغ فى دفتر توفير، وعـادت بعد ذلك إلى القرية محملة ببعض الهدايا لأختها، ثم أخـذت تهيئ نفسها للسفر إلى موسكو.

عصر ذلك اليوم اتجهت الأخت إلى المزرعة بينمـا

تأهبت دوسيا لزيارة قبر أمها بصحبة ميشا الصغير. كانـت السماء مغطاة بغيوم كثيفة تفرقت مع حلول المساء، ما عـدا أفق تلك الناحية التى سارت صوبها دوسيا وميشا، فقد ظلت عالقة هناك سلسلة سحب رصاصية متوردة، بعيدة وغائمـة كأنها وراء الشمس.

على بعد كيلومترين من القرية التف النهر بشدة فـى شكل أنشوطة، وعلى الشط الأيمن المرتفع قامـت المـدافن كأنما فى قلب شبه جزيرة. فى وقت ما كانت تلـك المـدافن محاطة بجدار من الطوب الأحمر، وكانوا يدخلونها من بوابة عالية مقوسة، وبعد الحرب استخدموا طوب الجدار المنهـار فى البناء، ولسبب ما أبقوا فقط على تلك البوابة، وتفرعـت الطرق إلى المدافن من كل ناحية.

فى الطريق استفسرت دوسيا من ميشـا - بهـدوء ورصانة - عن المدرسة التى يتعلم فيها، وأيام العمـل فـى الكلخوز، ورئيس الكلخوز، والمحاصيل، إلى أن لاحت معالم المدافن القديمة مضاءة باحمرار الشمس المنخفضة. وعلـى جانبى المدافن حيث ارتفعت الجدران يوماً ما ونمت أشـجار الورد البرى، ترامت المقابر القديمة جداً التى فقدت منذ زمن

بعيد هيئة المقابر. وغير بعيد ارتفعت بين الأحراش جـدران مطلية حديثاً برزت وسطها شواهد خشبية قصيرة على القبور الجماعية لشهداء الحرب..

وتجنبت دوسيا وميشا المرور من البوابة، وانعطفـا يميناً، ثم يساراً. وبين أشجار البتولا المزهـرة، والأحـراش التى يفوح عبيرها بحدة، بهت لون دوسيا شيئاً فشيئاً، وانفتح فمها قليلاً.

ـ هذا قبر جدتى.

قال ميشا. وشاهدت دوسيا ركام قبر كسـاه عشـب نادر حاد الطرف برز من الطين الجاف. ورأت دوسيا صليباً خشبياً بلون رمادى مشوب بالزرقة يرتفع فى الجو منحرفـاً، لم يعده أحد لموضعه منذ ذلك الشتاء الذى دفنـوا فيـه الأم. وصار لون دوسيا أقرب إلى البياض، وأحست فجـأة كأنهـا تلقت طعنة خنجر أسفل صدرها فى القلب تمامـاً. ولطمـت روحها كآبة سوداء، فأحست أنها تختنـق، وارتجفـت، ثـم صرخت مهتاجة، ووقعت على الأرض زاحفة على ركبتيهـا نحو القبر وأجهشت فى بكاء حار وكلمات لا يدرى أحد مـن أين جاءتها حتى أن ميشا أحس بالفزع. ولولت دوسيا بصوت

خفيض:

ـ آه.. آه.. آه..

ثم سقطت على القبر بوجهها، وغرسـت أصـابعها بعيداً فى الأرض الرطبة:

ـ يا أمى يا حبيبتى.. يا أمى.. يا من لا مثيل لك.. آه.. لن ألقاك فى هذه الدنيا بعد، لن ألقاك أبداً. أبـداً. كيـف سأعيش بدونك؟ من الذى سيدللنى؟ من الذى سيطمئننى؟ يـا أمى.. يا أمى.. كيف تفعلين هذا؟

وبكى ميشا من الخوف وصاح وهـو يجـذبها مـن أطراف كمها:

ـ خالتى دوسيا.. يا خالتى.

وتحشرج صوت دوسيا، وأخذت تقوس ظهرها، ثـم راحت تخبط القبر برأسها. وانطلق ميشا هارباً نحو القرية.

بعد ساعة حينما عمت الظلمة العميقة هرع الـبعض من القرية إلى دوسيا. ووجدوها راقدة فى نفـس المكـان لا تعى شيئاً، لم تعد تستطيع البكاء، أو الحديث، أو التفكير، فقط كانت تئن من بين أسنانها التى أطبقت عليها بشـدة. وكـان

وجهها أسود من تراب الأرض مرعباً.

أوقفوها، ودلكوا لها صدغيها، وأخـذوا يطمئنونهـا، يقنعونها، وساقوها إلى البيت، ولم تكن تـدرك شـيئاً ممـا حولها، كانت تتطلع إلى المحيطين بهـا بعينـين كبيـرتين متورمتين، وبدا لها أن الحياة ليل. وعندما أوصـلوها إلـى أختها فى البيت مشت حتى السرير بالكاد وتهـاوت فوقـه ونامت على الفور.

فى اليوم التالى عندما تأهبت دوسـيا للسـفر إلـى موسكو، احتست الشاى مع أختها عند الوداع. وكانت مرحة، وحكت عن شقتها الرائعة فى موسـكو، ووسـائل الراحـة المتوفرة بها.

هكذا سافرت دوسيا مرحة، ورصينة، كما أنها منحت ميشا عشرة روبلات.

بعد أسبوعين فتحوا بيـت الأم العجـوز، مسـحوا الأرض، ونقلوا الأثاث إليه.. وأخذ أناس جدد يعيشون هناك.

***

كان بكاؤك فى الحلم مريراً

كان يوماً من أيام الصيف الدافئة.

إلى جنب بيتنا، وقفتُ مع صديقى نتبـادل الحـديث، بينما تمشيتَ أنت قربنا، وسط أعشاب وزهور تطول كتفيك. وحيناً كنتَ تقعد القرفصاء لحظة، ترنو إلى صنوبرة دقيقـة، أو عود عشب، وقد لانت على وجهك نصف بسمة لا تفارقه، نصف بسمة لم تفصح عن مكنونها، حاولتُ كثيـراً أن أدرك مغزاها، لكن بلا جدوى.

وبين وقت وآخر، كان كلبنا "تشيف" يركض نحونا، فلما أتعبه الجرى بين أحراش التوت توقف بين ذراعيك وقد حاد عن مواجهتك قليلا، ثم شب بكتفيه نحوك كذئب، شاخصاً إليك بعينين قهوائيتى اللون، متوسلاً إليك وهو يلوى رقبتـه بجهد أن ترمقه بنظرة رقيقة. وكان ـ إذا تطلعـتَ إليـه ـ يجثو فى الحال على قائمتيه الأماميتين، ويهز ذيله القصـير فى الهواء وهو ينبح نباحاً مكتوماً. ولا أدرى لمـاذا كنـتَ تتهيب "تشيف"، فحين وقف قبالتك، درتَ من حوله بحـذر، واتجهتَ إلى، وأحطتَ ركبتى بذراعيك، ثم رفعـتَ رأسـك

متطلعاً نحوى بعينين زرقاوين تعكسان السماء، وتمتمتَ برقة وفرحة كأنك وصلت لتوك من مكان بعيد: "بابا".

وحين التفت يداك الصغيرتان حول سـاقى شـعرت بعذوبة من الألم تغمرنى.

وبدا أن صديقى قد ارتجف لأنك طوقتنى هكذا فجأة، فانقطع عن الحديث بغتة، ومد يده وداعب بأصـابعه شـعر رأسك المهوش، وتأملك برهة..

الآن، لن يرمقك ذاك الصديق بنظرته الحانية، ولـن يخاطبك أبداً، لأنه لم يعد موجوداً فى هذه الدنيا بعـد، أنـت أيضاً لن تتذكره بطبيعة الحال، كما أنك لـن تتـذكر أشـياء أخرى كثيرة. لقد أطلق النار على نفسه فى نهايـة الخريـف عند بدايات سقوط الثلوج الأولى.. ترى هل شاهدها؟. هـل ألقى نظرة من خلال زجاج الشرفة على المنطقة التى امتدت أمامه وقد أصابها الصمم فجأة؟ أم أنه أطلق النار على نفسه قبل ذلك.. فى المساء؟. وهل تساقطت الثلـوج فـى اليـوم السابق لما جرى، أم أن الأرض كانت سوداء حين هبط مـن قطار الضواحى، واتخذ طريقه إلى بيته كماض إلى سـاحة إعدامه؟.

حقاً، ألا يسوقنا هبوط الثلـوج الأولـى إلـى روح السكينة ومزاج الكآبة؟، ويسلمنا إلى وجوم شـوارد الأفكـار المتأنية الراكدة؟

متى؟ فى أية دقيقة؟ تملكته تلك الفكـرة المؤسـفة، المروعة، ثم راحت تطارده؟ الأغلب أن ذلك الخاطر قد طرأ له منذ زمن بعيد. أكثر من مرة صارحنى بالوحشـة التـى تنتابه مع بداية الربيع ونهاية الخريف، حينما يكـون وحـده بداره الريفية، فينزع إلى وضع حد لكل شىء، دفعة واحـدة بإطلاق النار على نفسه.. ولكن من الذى لا تفلت منه مثـل هذه الأحاديث لحظة الوحشة؟

لقد اعتصرته ليال مرهقة، لم يذق فيها طعم النـوم، وقد بدا له طيلة الوقت أن أحداً يتسلل إلى البيت، يشيع فيـه أنفاس البرودة، مبتغياً أن يسلبه لبه. كان الموت قـد انـدس إليه.

رجانى ذات يوم: أستحلفك بالله أن تعطينـى بعـض الطلقات النارية لقد استنفدت ما كان عندى، ويخيـل لـى أن أحداً يجوس فى البيت ليلاً.. بينما يسود البيت هدوء مطبـق كأنى بين المدافن.. أتفهم قصدى؟ الآن.. هل ستعطينى؟

أعطيته ست طلقات، وقلت له ضاحكاً: لعلها تكفيك.

كان لا يكف عن العمل المتصل، الدءوب، وكانـت حياته المتقدة بالنشاط، تجعلنى أشعر بالتقصير دائماً. وكنـت إذا زرته فى أى وقت تجده مشغولاً بعمله، فإن كان الوقـت صيفاً تدخل إلى بيته من ناحية الشرفة، وترفع رأسك متجهـاً ببصرك إلى علية البيت، نحو النافذة المفتوحة، ثم تنادى دون زعيق: "ميتيا". وسرعان ما يوافيك صوته: "آهـا". ويلـوح وجهه فى النافذة، ويظل دقيقة كاملة يتأملك بنظـرة غائبـة وراء ضباب، ثم تبدو على وجهه بسمة واهنة ويشـير بيـده النحيفة قائلاً: "الآن"، ويهبط من الدور العلوى إلـى الـدور الأرضى حيث تمتد شرفة البيـت، ويطـل عليـك مرتـدياً "البلوفر" السميك، وتحس أنه يتنفس بهدوء وعمـق خـاص عقب فترة طويلة من العمل، فترمقه ببهجة بل وبغبطة، كمـا تحس وأنت تنظر إلى فرس قوى مفعـم بالحيويـة، تتبـادل قوائمه طرق الأرض بنفاد صبره، ليطلقوا له العنان فيعدو.

كان يقول لى، إذا أصابنى مرض أو انتابنى اكتئاب:

ـ ما هذا؟ لماذا تنساق لنفسك هكذا؟ اتخذنى مثالا.. فأنا لا أكف عن السباحة فى نهر "ياسنوشكا" حتى فى أواخر

الخريف، فلماذا أجدك راقداً أو جالساً هكذا طيلـة الوقـت؟. انهض وقم ببعض التمرينات الرياضية..

فى منتصف شهر أكتوبر التقيت به للمرة الأخيـرة. وكان يوماً مشمساً بديعاً، جاءنى أنيقاً للغاية كعادتـه دومـاً، معتمراً غطاء رأس من وبر منفوش، لكن شيئاً فى وجهه كان منكسراً وحزيناً. ومع ذلك، فقد تدفقت أحاديثنا فـى البدايـة بصورة حية، وخضنا فى نقاش لا أذكر باعثه عن البوذيـة، وتكلمنا فى أن الوقت قد حان بالفعل للبدء فى كتابة الروايات الكبيرة، وأن السعادة الوحيدة الممكنة تتمثل فى العمل اليومى وحده، وهو أمر يصبح مستطاعاً فقط حين تعكف على كتابة عمل كبير.

رافقته وهو ينصرف.

وفجأة نشج بالبكاء، وأشاح بوجهه عنى. وبعد أن هدأ قليلاً غمغم قائلاً:

ـ حينما كنت هكذا، مثل طفلك آليوشا، بدا لـى أن السماء عالية هذا العلو، زرقاء هذه الزرقة لكنها جعلت تبهت

فيما بعد، لكن ذلك بسبب تقدمى فى السن.. أليس كذلك؟ فهذه الشمس هى ذاتها التى كانت تشرق فيما مضى.. ألست محقاً؟ هل تدرى أنى أخشى "أبرامتسيفا".

!أخشى تلك الضاحية، فكلما عشت بهـا أكثـر زاد تعلقى بها، ولكن.. أليس من الإثم أن يتعلق الإنسان بمكـان واحد إلى هذه الدرجة؟ لقد رفعت "آليوشا" على كتفيك.. ألـم تفعل؟ أنا أيضا حملتُ أطفالى صغاراً، وحين اشتد عـودهم ركبت الدراجات معهم رافقتهم، قاصدين ما يعجبنا من أمكنة فى الغابة الواسعة، وكنت أحادثهم طوال الوقت، أكلمهم عن "أبرامتسيفا"، وعن أرض "رادانيجسكى"، متمنيـاً أن يتيمـوا بهذه الأرض، فهى إن شئت الحقيقة موطنهم، وأرضهم الأم!

ويبدو أن نبات الخردل البازغ عند حواشى الطريـق قد استرعى انتباهه بشدة، فغير مجرى الحديث قائلاً:

ـ آه.. انظر إلى هناك، انظر.. أى خردل أبـيض سيظهر عما قريب!

وطفق يسر إلى بمشاريع عمله التى أعدها للشـتاء. وكانت السماء زرقاء إلى درجة مذهلـة، وضـاءت أوراق

الخردل البيض بلون شمسى، ذهبى كثيف. توادعنـا بمـودة خاصة، وإحساس حميم بالصداقة.

* * *

بعد ذلك بثلاثة أسابيع، عند شـاطىء البحـر فـى "جاجرى"، تقصف رعد السماء، ودوى، وكأنـه يقصـدنى، وكأن الطلقة الليلية التى دوت فى "أبرامتسيفا" قد حلقت فـى سماء روسيا كلها، ودومت حتى أدركتنى عند شاطىء البحر. حينذاك ـ تماماً كما يعرض الآن وأنا أكتب هذه الصـفحات ـ كان الموج يلطم الشاطىء، والبحر يزفـر فـى الظلمـة رائحته من الأعماق، وهناك بعيداً ناحية اليمين، التفت تدور مع قوس الخليج سلسلة من الفوانيس المتلألئة المنيرة.

كنتَ أنتَ قد بلغتَ الخامسة، جلستَ إلى جانبى عنـد الشاطىء المعتم قرب وجيب الأمواج التى غيبتهـا الظلمـة، ننصت إلى وشوشتها وإلى طقطقة الحصى البليل وهو يثـب مع جزر الموج المنحسر، ولا أدرى فيم كنتَ تفكـر، كنـتَ جالساً صامتاً، لا أعرف لماذا. أما أنا، فقد خيل لـى أننـى أمضى هناك.. فى "أبرامتسيفا"، أمشى من محطـة القطـار قاصداً بيته، ولكن عبر طريق آخر غير الذى كنـت أقطعـه

عادة، وتلاشى البحر من أمامى وتبددت جبـال الليـل مـن حولى، وقدرتُ فى الظلمة ـ من الأنوار التى تضىء بعيـداً ـ موقع البيوت القليلة. سرت فى طريق مرصـوف بقطـع الزلط، كسته الثلوج الأولى. وحين التفت خلفى شاهدت آثار قدمىى، سوداء، مطبوعة بدقة على ثلج منطفـىء البيـاض، وتحركت متجهاً يساراً، وأخذت أخطو بمحاذاة بحيرة كابيـة المياه، وإن كانت حوافها منيرة. ووجدتنى أتوغل فى عتمـة من أشجار الشربين، واستدرت إلى الناحية اليمنى فـواجهنى درب مسدود، حدقت قبالى مباشرة، وشاهدت داره الريفيـة المحمية بأشجار الشربين نوافذها مضاءة.

ولكن.. متى وقع ذلك؟ مساء.. أم ليلاً.. متى؟

تمنيتُ ـ لا أدرى لماذا ـ أن تحل بـاكورة الفجـر الخفيف لليل نوفمبر. أنه أوانها فيه ترقب تباشير الصبح من الثلج الذى يزداد بياضاً، والشجر الذى يتحدد ويبرز من لجة الغبشة الشاملة.

ها أنا أصل إلى بيته المطوق بسور دائـرى وأفـتح الباب الخشبى الصغير بالسور، ثم أرتقى درجـات السـلم، لأقف فى الشرفة الفسيحة، وأرى...

سألنى ذات يوم: "أسمع.. هل تعتبر طلقـات الـرش ذخيرة قوية؟ أقصد إذا أطلقتها من مسافة قريبة؟".

أجبته: "بالطبع! فلو أنك - من على بعد نصف متر - صوبت على شجرة حور صغيرة، ولنقل أن ساقها بعرض ساعد اليد، فإن طلقة الرش ستجز الشجرة كحد الموسى".

مازالت تعذبنى إلى الآن ذات الفكرة: ما الذى كنـت سأفعله، لو أننى شاهدته حينذاك وهو جـالس فـى الشـرفة والبندقية مرتكزة إلى الأرض بين قدميه وفوهتها نحو وجهه، بينما إصبع إحدى قدميه على زنادها؟. ترى هل كنت سأحطم الباب على الفور وأكسر الزجاج وأنا أصرخ بكل صوتى إلى أبعد مدى فى المنطقة؟ أم أننى كنت سأحول بصرى عنه من شدة الرعب ممسكاً أنفاسى، على أمـل أنـه إذا لـم يحـس بوجودى فربما يعيد النظر - من تلقاء نفسه - فيما قـرره؟ فينحى البندقية جانباً، وبحذر يؤمن بإبهامه زنادهـا وأخيـراً يتنفس الصعداء، يتنفس بعمق.. بعمق كأنه يفيق من كابوس، ثم يهدأ.. وينتعل خفيه..؟

ولو أننى كسرت الباب مهشـماً زجاجـه وانـدفعت صوبه صارخاً.. أكان سيلقى بالبندقية جانباً ويثـب نحـوى

سعيداً؟ أم أنه على العكس كان سيعجل بالضغط بإصبع قدمه على الزناد وهو يحدجنى بعينين ميتتين تنطقان بالكراهية؟

إلى الآن مازالت روحى تحلق صوب بيته فى تلـك الليلة، تحوم باذلة أقصى قدرة متلهفة على التوحد بروحـه، ماضية وراء كل حركة يقوم بها، معتصرة كل جهدها لتخمن ما يدور برأسه.. ولكن بلا جدوى، فتئوب إلى من جديد لقـد بلغ داره الريفية فى وقت متأخر من المساء، فماذا فعل فـى الساعات الأخيرة من عمره؟ لعله ـ قبل كل شىء ـ قد بدل ملابسه، وعلق بذلته فى الصوان، علقها لا كيفما اتفق، بـل على نحو مرتب كما اعتاد.. ثم خرج بعد ذلك ليأتى بحطـب لتسخين المدفأة.. وتناول تفاحة ليأكلها. لكن هل استولى عليه ذلك القرار المهلك فى الحال؟ لا أظن. فكيف لمن اتخذ قراراً بالانتحار أن يهتم بتسخين المدفأة وأكل تفاحة؟ كـلا.. إنـه يتراجع عن تسخين المدفأة بغتة، ويستلقى راقداً، وفى تلـك اللحظة على الأرجح يتخذ قراره.

ترى ما هى الصور التى تراءت له؟ هل اسـتغرقته ذكرياته فى الدقائق الأخيرة؟ أم أنه لم يستسلم لها وشرع يعد نفسه فحسب لما قرر الإقدام عليه؟ هل بكى؟ أم نهض واقفاً،

واستحم، ارتدى ملابس داخلية نظيفة، وكانت البندقية معلقـة على الجدار، رفعها من مكانها، وأحس وهو يحملهـا بثقلهـا البارد وجمود الماسورتين الفولاذيتين، ورقد بيـت الطلقـات بطواعية فى راحة يده اليسرى، وتحت ضـغط إبهـام يـده اليمنى تحرك لسان الترباس ببطء نحو اليمـين، وانقصـمت البندقية إلى نصفين، وعند موضع القصم كشفت عن فتحتـى الماسـورتين.. وانزلقـت رصاصـة واحـدة فـى إحـدى الماسورتين، انزلقت بنعومة ويسر. الرصاص الذى أعطيتـه له. أضاء النور فى أرجاء الدار كلها، وأضاء نور الشـرفة، جلس على مقعد وخلع خفه من قدمه اليمنى، ثم فـك أمـان الزناد، فكه بطقة رنت فى الصمت المطبق، وأولـج طـرف البندقية فى فمه، ضـغط عليهـا بأسـنانه فـأحس ملمـس الماسورتين وطعمهما المعدنى، البارد، الزلق..

ترى هل خلع فى الحال خفه بعـد أن جلـس علـى المقعد؟ أم أنه ظل واقفاً طيلة الليل لاصقاً جبينـه بالزجـاج الغائم من الدمع والشهيق؟ أم أنه قام بجولة أخيرة فى قطعـة الأرض الصغيرة الملتفة حول الدار، مودعاً الأشجار، ونهر "ياسنوشكا"، والسماء، ومقعده الخاص فى الحمـام العزيـز

المبنى خارج الدار؟ ترى هل سقط إصبع قدمه على الزنـاد فوراً؟ أم أنه لقلة خبرته أخطأ الزناد، وظل بعد ذلـك لفتـرة طويلة يلتقط أنفاسه وهو يمسـح عرقـه البـارد.. ثـم راح يستجمع قواه مرة أخرى متأهباً لمحاولة ثانية؟ هل أغمـض عينيه حينما أطلق النار؟ أم أنه تطلع إلى شىء مـا بعينـين مفتوحتين على وسعهما حتى ومضة العقل الأخيرة؟

ليس الضعف، لا، لكنها الصلابة، والقدرة العظيمـة على الحياة هى ما يحتاجه المرء ليبتر حياتـه بتـراً بتلـك الطريقة. لكن ما الذى دفعه إلى ذلك؟ ماذا؟ أفكر فـلا أجـد إجابة. هل انطوت حياته الحافلة بالعمل والحيوية على عذاب لم أكن أعلم به؟ وإن كان، فهل المعذبون من حولنـا قلـة؟ كلا.. لا يلجأ الإنسان إلى الرصاص لذلك السبب. هل كـان محتماً عليه منذ الميلاد ذلك القضاء المميت؟ وهل حقاً أن كل إنسان موسوم بقدر لا نراه، يوجه مجرى حياتنا منذ البدايـة وإلى النهاية؟

وجاست روحى فى ظلمة.

* * *

كان يوماً من أيام الصيف الدافئة كما قلتُ من قبـل،

وكان لا يزال حياً بيننا، وكان يوماً مشمساً ساطعاً، يوماً مديداً.. مديداً، من أيام الصيف التى نتذكرها بعد انقضاء سنوات فتبدو لنا أياماً بلا نهاية. ودعنى فى ذلك اليوم، ومرة أخرى داعب بأصابعه شعر رأسك، ومست شفتاه - من بين شاربه وذقنه - جبينك، مسته برقة، ودغدغتْك قبلتُه فأُغرقتَ فى ضحك سعيد. وانصرف "ميتيا" قاصداً داره.

وانطلقنا، أنا وأنت، وأخذت معى تفاحة كبيرة للطريق، وبدأنا رحلتنا التى تمتعنا منذ الصباح بتخيل مسراتها المقبلة. وعندما رأى "تشيف" أننا نستعد للحركة، ركض مقترباً منا ثم جرى على الفور أمامنا يسبقنا وكاد أن يوقعك على قدميك، ففرد أذنيه فى الهواء ترتجفان رجفة جناحى فراشة، ثم وثب عالياً إلى الأمام، وتوارى عن أعيننا بعيداً فى الغابة.

ياه.. يا له من طريق امتد أمامنا طويلاً، كيلو متراً بأكمله تقريباً، مضمراً لنا المتع الحلوة، ورغم أنك مشيت فى هذه السكة من قبل، ووطأتها أكثر من مرة، فتعرفت إلى بعض جوانبها، لكن.. هل أن وقتاً يشبه وقتاً آخر؟ وهل أن ساعة من الزمان تشبه الأخرى؟ ففى سيرنا، غامت الدنيا

تارة وتارة أخرى أشمست، مرة تشبعت بالندى، ومرة تلبدت سماؤها كلها بالسحب، وحيناً آخر زأرت مدحرجة رعـدها، فهطل رذاذها، وانعقدت خيوط الماء الدقيقة الجارية خرزات تنتظم عقوداً على الفروع الجافة النحيلة لشـجر الشـربين، وغسل الماء حذاءك الأحمر فالتمع بلطف، وأعتمـت أرض الممشى بلون زيتى غامق منطفىء، ودفعة كانت الريح تهب فتدمدم أشجار الحور، وتغمغم قمم البتولا والشربين، طـوراً كانت صباحاً، وطوراً آخر منتصف نهار، وقتاً برداً، ووقتـاً حراً، لم يكن هناك يوم واحد يماثل الآخر، ولا سـاعة، ولا شجيرة.. لا شىء.

فى ذلك اليوم، كانت السماء زرقاء صـافية، زرقـة هادئة شاحبة، ليست تلك الزرقة النفاذة التى تسـيل جـداول صوب أعيننا فى أوائل الربيع، أو تلك التى ترجف أرواحنـا حين تنفذ من فرجة فى السـحب المنخفضـة عنـد أواخـر الخريف. وكنتَ فى ذلك اليوم مرتدياً فانلة ليمونية، وسروالاً أحمر، قدماك فى صندل بنى، يطل منـه جـورب أصـفر. وكانت ركبتاك مخدوشتين، وقد بدت ذراعـاك بيضـاوين، وقدماك أيضاً، وكتفاك.. أما عيناك الواسـعتان، الرماديتـان

بزرقة، المحاطتان بالنمش الدقيق، فقد ازدادتا زرقة وإعتاماً لا أدرى لماذا.

تركنا مدخل البيت خلف ظهرينا، وسرنا نحو البـاب الخلفى الصغير. سرنا أول الأمر فى الممر الضـيق الـذى غارت بقع الظلال فى أرضه ملاصقة لقطع الشمس، وكنـا نتخطى جذور شجر الشربين، فتنثنى أوراق الجذوع مرنـة تحت أقدامنا. وفجأة توقفت فى مكانك كأنما تسمرت ورحتَ تتطلع إلى ما حولك، وعلى الفور أدركتُ أنك تبحـث عـن العصا.. العصا التى لم تكن تتصور بدونها أية نزهة. وبحثتُ فى الممر حتى وجدت لك عوداً من شجرة جوز فقصـمته، وناولتك نصفه: العصا. وغضضتَ بصـرك فرحـاً لأننـى خمنتُ أمنيتك، وأخذتَ العصا منى ومددت الخطـو أمـامى وأنت تلامس بطرفها جذوع الأشـجار الداخلـة إلـى أرض الممر، وأوراق السرخس الطالعة ملتفة كآلة الكمان ورطبـة من الظلال.

أحنيتُ رأسى أتابعك ببصرى، وكنت ألمـح قـدميك الصغيرتين وهما تتبادلان الخطو إلى الأمـام، وكنـت أرى رقبتك النحيلة وخصلات شعرك الفضى التى كست رقبتـك

من الخاف، وذؤابة شعرك المنفوشة، وحاولـت أن أسـتعيد صورتى وأنا صغير، فتألبت على الذكريات علـى الفـور.. لكن.. مهما تكن صورى المستعادة من أبعد فترات الطفولة، كنتُ كيفما تذكرت نفسى أرانى أكبر منك وأنت تمشـى الآن إلى جوارى.

مشينا حتى انفسح أمام بصرنا فجأة خلاء واسع عن يسارنا، كاشفاً تحته عن واد صـغير، ترقـرق فيـه نهـر "ياسنوشكا"، وانبعثت من المروج السـاخنة رائحـةً دافئـةً مستفيضةً فى روح الغابة التى طوقتنا من كل ناحية..

رددتُ بصورة تلقائية مطلع أغنية للأطفال:

ـ "آليوشا.. رجله بدرى..".

واستجبتَ ببساطة فى الحال:

ـ "ماشيه على السكة تجرى".

وأدركتُ وأنا أرى ارتعاشة أذنيك الشـفافتين أنـك ابتسمت.

لقد سعيتُ أنا أيضاً، فى وقت مضـى، مثلـك الآن هكذا، فى بحبوحة من الزمن، وكان صيف حينذاك، وكانـت

الشمس حامية، والنسيم يدفع أمامـه شـذى كرائحـة هـذه المروج.. كان ذلك بإحدى المناطق فى ضـواحى موسـكو. وكنتُ أقف فى حقل واسع انقسم الناس فيـه إلـى قسـمين، فوقفت جماعة منهم عند طرف حقل، حيث امتدت خلفه فـى العمق غابة ليست كثيفة من أشجار البتـولا، وتألفـت تلـك الجماعة من النسوة والأطفال وحدهم، وكانت غالبية النسـاء يبكين وهن يجففن دموعهن بمناديل الرأس الحمـراء. وفـى الطرف المواجه لنا من الحقل وقف فريق من الرجال صـفاً واحداً لاح خلفهم مرتفع لمزلقان سكة حديدية، وبـدت فـوق المزلقان عربات شحن بنية داكنة من قطار انطلقت صفارته وتصاعد أمامه دخانه الأسود عالياً بعيداً.. وكانت حفنة مـن الرجال بالقمصان العسكرية يروحون ويجيئون بيننـا وبـين صف الواقفين..

كانت أمى تبكى مع النساء، وتجفف دمعها الجارى، وكانت تزر ـ طوال الوقت ـ عينيهـا ضـعيفتى البصـر وتسألنى: "يا ابنى.. هل ترى أباك؟ هل لمحته؟ قل لى أيـن يقف. على الأقل أشر لى فى أية ناحية هـو..". قلـت لهـا: "نعم.. أنى أراه يا أمى"، وبالفعل كنت قد شاهدته هناك بـين

الرجال فى الجانب الأيمن من الصف، ورآنـا هـو الآخـر فابتسم، وكان يلوح لنا بيده من وقت لآخر، لكنى لم أدرك ما الذى يمنعه من التقدم للقائنا، أو يمنعنا نحن من المضى إليه.

وشعرتُ بغتة بتيار من القلق يسرى بيننا، وأمسـكتْ بضعة من الأولاد والبنات بربطات صغيرة، وشرعوا وهـم مترددون، يعدون عبر المروج الواسعة إلى الطرف الآخـر من الحقل. وبتعجل دفعت أمى إلى بربطة ثقيلة من الملابس والمعلبات، ولكزتنى، وصوتها المرتفع يلاحقنى: "أسرع إلى أبيك يا ابنى واعطه الربطة، قبله وقل له أننا ننتظر عودته". وكانت الوقفة الطويلة فى الحر قد أرهقتنى، فسـعدت بتلـك المهمة وجريتُ مع الأولاد الآخرين..

وتلألأت ركب الأطفال العاريـة بضـوء الشـمس المتقطع وأنا أعدو بينهم فى الحقل، وكانت البهجة تخز قلبى لأن أبى ـ أخيراً ـ سيضمنى إلى صدره، ويرفعنى بذراعيه ليقبلنى، ولأننى سأستمع من جديد إلى صوته، وأنشق رائحة دخانه الهادئة. لم أكن قد رأيت أبى منذ زمن بعيـد، بعيـد، حتى أن ذكرياتى القليلة عنه كانت كأنما اكتست بغلالة مـن الرماد الرقيق، وأصبحت إحساساً بالشفقة على نفسى، لأننـى

وحيد من دون كفيه الغليظتين، الخشنتين، وحيـد مـن دون صوته، ونظراته التى كان يلقيها على نفسه فى المرآة. كنت أعدو وأنا أتخطف النظر تارة إلى الأرض التى تجرى مـن بين قدمى، وتارة إلى وجه أبى الـذى ميـزتُ فيـه شـامة صدغه.. واتضح لى وجه أبى وقد حطت عليه التعاسة فجأة، ولاحظت أنه كلما قلت المسافة بينى وبين الصف، زاد قلـق الرجال الواقفين هناك ومن بينهم أبى..

انتهى الممر الضيق، وخرجنا من البـاب الخشـبى الصغير إلى الغابة الواسعة، واستدرنا يميناً صـوب البنـاء الدائرى ذى القبة الخرسانية، وكان جارنا قد شرع يبنيه فـى وقت ما لكنه لم يتمه، فانسحب اللون الرمادى علـى البنـاء بأكمله، بقبته، وأعمدته، وطوقته أشجار الحـور والشـربين متشابكة ملتفة، وكنتَ لمدة طويلة تستمتع بتقليب النظر فيها، بانبهار..

عن يسارنا، ترقرقت مياه نهر "ياسنوشـكا" خيوطـاً فوق الحصى، ولم نكن قد رأينا النهر بعد، فقد وارتـه عنـا شجيرات الجوز الكثيفة وأحراش التوت، لكننا كنـا نعلـم أن هذا الممشى الذى يقودنا إلى البناء ذى القبة سيمضى بنا إلى

نقرة صغيرة معتمة من مياه النهر، تـدور فيهـا وريقـات الشجر، ببطء شديد.

من الفرجات فى أعالى الشجر، صبت الشمس علينا أشعتها، متقطعة، فى أعمدة رأسية تقريباً.. وتوهجـتْ مـن ضوء الشمس خيوط عصائر الأشجار متموجة كالعسل على ألحية الشجر، وتناثرت هنا وهناك، حبات فراولـة حمـراء كقطرات من الدم.. وتزاحمت ترف مـن حولنـا هويشـات الباعوض الخفيف، وتنادت طيور حجبتها كثافة الأوراق فى الأشجار، ولاح واختفى فى شعاع شمس سنجاب فـر مـن شجرة لأخرى، وتأرجح الفرع الذى تركه السنجاب من لحظة مهتزاً، وطابت روح سلامية فى كل شىء حولنا.

ـ آليوشا.. انظر: سنجاب. أتراه؟ إنه يتطلع إليك.

ورفعتَ بصرك لتنظر السنجاب، وأخذتَ تحدق إليه، وأفلت عصاتك من يدك، وكنت دوماً تتركها تسقط من يـدك إذا استرعى انتباهك شىء ما. ظللت تُتْبع السنجاب بصـرك حتى احتجب تماماً، وحينئـذ تـذكرتَ عصـاتك فالتقطتهـا وانطلقتَ فى السكة من جديد.

من أمامنا، طلع علينا "تشيف" بوثبة عالية فى الهواء كأنه سيرتفع طائراً، وتوقف ورنا إلينا مدة بعينيه العميقتـين المسحوبتين كعينى الغزال مستفهماً: هل يواصل ركضه إلى الأمام؟ أم أننا سنرجع فى الاتجاه العكسـى، أو نحيـد عـن الطريق؟ وأشرتُ له دون أن أنبس بحرف إلى الاتجاه الـذى سنمشى فيه، فاستشف الإشارة واندفع راكضاً فى الطريـق. وبعد دقيقة تناهى إلينا نباحه المتهيج يتردد من مكان ثابت لا يتحرك من عنده. إذن فلم يكن "تشيف" يطارد صـيداً، لكنـه عثر على شىء ما، ولهذا يدعونا لنوافيه بسرعة.

قلت لك: أسمعت؟ عزيزنـا "تشـيف" وجـد شـيئاً ويناديـنا.

ورفعتك لأحملك على ذراعى، حتى أجنبك أشـواك الشربين ولكى نصل أسرع إلى "تشيف". ورحنا نـدنو مـن مكان النباح أقرب فأقرب حتى انتهينا إلـى شـجرة بتـولا ضخمة بديعة، كانت تنهض منعزلة فى مرج صغير غشـته طحالب صفراء، وحادة الخضرة، وليلكية، وأسـفل الشـجرة شاهدنا "تشيف" وهو يحاوط قنفذاً ولم يكن ينبح فحسب، بـل كان يهر بصوت مكتـوم وحـار وهـو يغـص بتأوهاتـه.

وأدهشتنى مرة أخرى حاسة "تشيف"، فأنى له وهو يـركض فى الممشى أن يحس من على بعد ثلاثين متراً عن الممشـى بوجود قنفذ تحت تلك الشجرة؟

اشتد نباح "تشيف" حين رأى أننا وصلنا إليه، ورأيتُ الطحالب المحدقة بالقنفذ وقد داستها أقدام "تشيف" مـن كـل ناحية. أنزلتك إلى الأرض، وشرعتُ أشد "تشيف" من الطوق المحيط برقبته لأبعده عن القنفذ.. وجلسنا القرفصـاء أمـام القنفذ المحاصر.

قلت لك: هذا هو القنفد. كرر: ..قن.. فذ.

ورددتَ: قنفذ. ثم لامسته بطرف عصاتك.

وانتفش القنفذ وقفز من مكانـه، فسـحبتَ عصـاتك بسرعة وفقدتَ توازنك واقعاً على الطحالب.

قلت لك: لا تخف. ولكن لا داعى لأن تلمسه. انظر.. كيف تقاص القنفذ مثل الكرة ونشر شوكه، لكنه حالما تغـادر المكان سيخرج بوزه ويجرى على أشغاله، فهو مثلك يتنـزه، بل إن النزهة ضرورية، لأنه ينام الشتاء بأكملـه.. الثلـوج تسوقه إلى النعاس فينام. هل تذكر الشتاء الماضـى؟ أتـذكر

كيف كنت تجلس فى زلاقتك الخشبية ونحن نجرها بك علـى الثلوج؟

لم تجبنى على سؤالى، لكنك ابتسمت فحسب، بسمتك الغامضة. يا إلهى.. ما الذى كان بوسعى ألا أعطيـه، لكـى أدرك فقط، سر بسمتك المبهمة تلك؟ حين تبتسـمها وأنـت وحدك.. أو عندما تسمعنى بينما أخاطبك؟ أتراك تعى شـيئاً أهم وأعمق من كل ما عرفته وخبرته أنا فى الدنيا؟

وتذكرتُ يوم ذهبتُ لأتلقاك من مستشـفى الـولادة، وكنتَ حينذاك ربطة متماسكة وملفوفة بإحكام، مجـرد لفـة تناولتها من الممرضة وخيل لى أنها ثقيلة إلى حد مـا. ولـم أكن قد بلغت باب السيارة بعد، حين شعرت أن داخـل تلـك اللفة جسماً دافئاً وحياً، أحسست ذلك رغم أن وجهـك كـان مستوراً بقماشة رقيقة ولم أكن قد شعرت بأنفاسك بعد. فـى البيت حررناك من القماط فور وصولنا، وتوقعتُ مما يكتـب ويشاع عن المواليد أن أرى وجهاً صغيراً أحمر اللـون، لا يبين فيه ملمح من التجاعيد، لكنى لم أبصـر لا حمـرة ولا تجاعيد. كان وجهك صافياً ومضيئاً، وتحركتْ متدافعة قدماك ويداك الدقيقة بشكل مذهل، وفتحتَ عينيك الواسعتين، فبـان

لونهما السماوى الضارب إلى الرمادى، فتحتهمـا وتطلعـت إلينا بأهمية. كنت آية واضحة بأكملك، لولا الشريط الطبـى الملصق بسرتك.

سرعان ما قمطوك من جديد، وأطعموك، وأرقـدوك لتنام. وانتقلنا جميعاً إلى المطبخ فجلسنا هنـاك، وانهمكـت النساء وهن يشربن الشاى فى ثرثرة بهيجة بشـأن القمـاش الذى يفرش تحت الطفـل، وأفضـل الطـرق لتعقـيم لـبن الرضاعة، وإعداد الحمام، وغير ذلك. ولم تقر لـى جلسـة، فكنت أنهض من وقت لآخر وأتوجه إلى غرفتـك، أجلـس بجوار سريرك وأتملى وجهك طويلاً. فى المـرة الثالثـة أو الرابعة عندما قصدتُ غرفتك وجلستُ قربك، رأيتـك فجـأة تبتسم أثناء نومك ووجهك يختلج..

ما معنى بسمتك تلك؟ أهى من أحلام طافت بعينيك؟ لكن أية أحلام كان لك أن تراها؟ وأى شـىء كـان لـك أن تعرفه؟ وكيف للأحلام أن تراودك؟ إلى أين ساقتك أفكـارك حينذاك؟ أو كانت لك أفكار؟ لم تكن بسمتك فقط، إنما ضـاء وجهك كاملاً بتعبير رفيع عن أرقى درجـة مـن المعرفـة، وشفتْ فوقه سحابات رقيقة وهو يصير كل لحظة إلى وجـه

آخر، غير ما كانه، ومع ذلك لم ينطفىء ولم يتحول انسجامه العام لحظة.

فى أوقات صحوك، سواء أكنتَ تبكى أم تضحك، أم تتطلع صامتاً إلى اللعب المعلقة إلى حافة سريرك، لم يكـن وجهك فى تلك الأثناء يستنير بذلك التعبير الذى استفاض فيه وأنت نائم فأذهلنى وجعلنى أمسك أنفاسى مفكراً: مـا الـذى يحدث لك؟

فيما بعد، قالت لى أمى: "يبتسم الوليـد هكـذا، لأن الملائكة تلاطفه".

والآن، ونحن جالسان القرفصاء نتأمل القنفذ، أجبتنى عن سؤالى ببسمتك المبهمة، لم تقل شيئاً، وهكذا لم أعرف إن كنتَ تذكر ذلك الشتاء أم أنك لا تذكره؟ وكان شـتاؤك الأول الذى انصرم فى "أبرامتسيفا" شتاءاً جميلاً، تساقطت ثلوجـه وفيرة أثناء الليل، وأضاءت شمسه فى النهـار بلـون وردى مشع، حتى صارت سماؤه وردية، واكتست أشجار البتـولا وبرة من قطرات الندى، تجمدت نقطاً ثلجية. وكنا نخرج بك لتستنشق هواء الثلوج النقى، فتنتعل حذاءك الشتوى، وترتدى معطفاً من الفرو سميكاً إلى درجة أن يـديك فـى قفازيـك

السميكين كانتا تتباعدان عن جانبيك فى الهواء. وكان لابـد، إذا جلست فى الزلاقة، من أن تأخذ معك عصا تمسكها فـى يدك طوال الفسحة، ولذلك أسندنا إلى مـدخل البيـت عـدة عصى مختلفة الطول، وكنتَ فى كل مرة نخرجـك للفسـحة تختار عصا أخرى غير السابقة. كنا نخرج بك مـن بوابـة البيت ومن هناك تبدأ فسحتك المبهجة وتشرع بعصاتك فـى رسم الخطوط فوق الثلج، وتناغى نفسك، وتنـاغى السـماء والطيور والشجر، وتناغى حتى هسهسة الثلج المتكسر تحت حديد زلاقتك وتحت أقدامنا. وكان كل ما حولك ينصت إليك، ويفهم غمغماتك، وحدنا نحن لم نكن نفهم ما تقوله، لأنك لـم تكن قد تعلمتَ الكلام بعد، وإن كنت تترنم بمختلف الألحان، وكانت كل لا.. لا.. لاتك، وبا.. با.. تك، وفا.. فا.. فاتـك تسر إلينا شيئاً واحداً: أنك سعيد. ثم لزمتَ الصمت، فتطلعنا حولنا ورأينا عصاتك واقعة خلفك، هناك بعيداً، فبدت سوداء فوق الثلوج البيضاء، وأنت تغط فى النوم وقد باعدتَ ما بين ذراعيك بينما اشتعل خداك المشدودان حمرة من البرد. وكنا نجر الزلاقة وأنت نائم ساعة وساعتين فلا تصحو أو تفيـق، وحتى بعد أن نصل إلى البيت، كنت تواصل إغفاءك العميق

بينما نخلع عنك حذاءك، وملابسـك، نفـك أزرار ألبسـتك، ونحررك من الأربطة، ونرقدك فى سريرك وأنت لا تـزال نائماً.

حينما أشبعت بصرك من القنفذ، نهضنا وعدنا إلـى السير فى الممشى من جديد، وسرعان ما بلغنا البناء ذا القبة، وحالما شاهدتَ القبة توقفتَ مكانك ولفظتَ بسرور كعادتك:

ـ قبة.. حو.. وة.. كبـ.. يـ.. لة.

تطلعتَ مدة إلى القبة "الحلوة الكبيـرة" مـن علـى مسافة، ورددت بنفس النبرة المندهشة "قبة.. كبـ.. يـ.. لة" وكأنها المرة الأولى التى تراها. اقتربنا منها، فَرحتَ تطـرق أعمدتها واحداً بعد الآخر بعصاتك، ثم غضضـتَ الطـرف ناظراً إلى حضن النقرة الصغيرة تحتنا، وفى الحال مـددتُ لك يدى، وشرعنا ويدى بيدك ننحدر إلـى أسـفل الجـرف، وحين وصلنا إلى الماء بدا سطح النقرة الصـغيرة ثابتـاً لا يضطرب، وعلى مرمى البصر ضحل النهر وتناهى إلينا من هناك خرير الماء فى الحصى، ولم يكن جريان الماء مرئيـاً إلا إذا راقبنا لبرهة ورقة شجر وهى تسبح وتتحـرك بـبطء إلى الأمام حيث ضحل النهر، ببطء حركة عقرب الدقائق فى

الساعة.

بجانب الماء رقدت شجرة شربين مكسورة، جلسـتُ عليها وأخذت أدخن. كنتُ أعرف أنى سأمكث هنـا إلـى أن تمتلىء أنت غبطة وحبوراً من كافة متع النقـرة الصـغيرة. أفلتّ العصا من يدك واقتربتَ من أفضل موقع يناسبك فـى الشجرة، ذلك الممتد داخل الماء مباشرة، وانحنيتَ راقداً عليه بمقدمة صدرك، وصرتَ تحدق فى الماء. من الغريب أنـك فى الصيف لم تكن تميل إلى اللهو باللعب المألوفـة، لكنـك همت بتفحص الأشياء بالغة الدقة، وكان بوسعك أن تظـل ـ إلى ما لا نهاية ـ منشغلاً بزحزحة حبة رمل صغيرة فـوق راحتك، أو ورقة شربين ضئيلة أو فتيتة من عشب، وكانـت كسرة من طلاء الجدار بالبيت لا تزيد عن مليمتر تكشـطها بأظفرك جديرة بأن تسلمك لمتعة التأمل طويلاً. وكان عـالم النحل والفراش والباعوض يشغلك أكثر بكثير من عالم القطط والكلاب والأبقار والغربان والسناجب والطيور. أى كون، لا نهاية له، تفتح لك فى قاع النقرة الصغيرة وأنت راقد علـى الشجرة يكاد وجهك يلامس الماء متملياً كل ما فى القاع؟ وكم من حبات رمل دقيقة وصغيرة استكنت هنـاك، وكـم مـن

حصى تباينت ظلال لونه، وأى زغب أخضر رقيـق كسـا الحصى الكبير، وكم من الأسماك خليقة لتوها، دقيقة، شـفافة الجسم، كانت تسكن مكانها تماماً بلا حراك، وتـارة أخـرى تثب فجأة فى الهواء ناثرة الماء معها، وكم من دقائق لا ترى إلا بالميكرسكوب كانت مرئية لعينيك وحدهما؟

بعد دقيقة قلتَ لى:

ـ الأسماك.. تسبح.

قلتُ لك وأنا أقترب لأجلس بجوارك:

ـ آها.. إذن لم ترحل الأسماك بعد إلى النهر الكبير؟ يا لها من أسماك صغيرة لعلها مخلوقة لتوها، فهـى ضـئيلة للغاية..

ووافقتنى بسرور:

ـ ـصـ.. ـغيـ.. لة.. جداً.

كان الماء فى النقرة الصغيرة شفافاً، إلى درجة أنه لم يكن ِليرى لولا صورة السماء المنعكسة عليـه مـع أعـالى الشجر. دليتَ رأسك مقترباً من الماء وكمشـتَ حفنـة مـن حصى القاع، فارتفعتْ قليلاً من النقرة سحابة مـن عكـارة

دقيقة، وظلتْ معلقة هنيهة مكانها ثم هبطتْ، وحينذاك فككتَ قبضتك عن الحصى الذى كمشته فاهتزتْ صـورة الشـجرة على سطح الماء. وحين اعتدلتَ رافعاً نصفك العلـوى مـن على الشجرة، ونهضتَ بسرعة، أدركتُ أنك تذكرتَ لعبتـك المفضلة التى آن أوانها: رشق المـاء بالأحجـار.. ومـرة أخرى، رجعتُ إلى جلستى الأولى، وتخيرتَ أنـت حجـراً كبيراً، وقلبته فى راحتك، تتأمله بحب من مختلـف جوانبـه واقتربت من الماء ثم قذفت الحجـر إلـى وسـط الدوامـة، واندفعت نافورة الماء إلى أعلى بخيوط الهـواء المتمـوج، واصطك الحجر مكتوم الصوت بقـاع الحفـرة، وانـداحت الدوائر فـى المـاء.. ووقفـتَ مسـتمتعاً بصـورة المـاء المضطرب، وبانتثاره، وبصوت الحجـر المكتـوم، وبقبقـة الماء، إلى أن هدأ كل شىء، فتناولت حجراً آخر، كما فعلتَ من قبل، تأملته، ثم ألقيت به..

رحتَ ترمى حجراً إثر حجر، وقد أبهجتـك رؤيـة الرذاذ المتطاير وانديا‌ح الدوائر، وكانت الدنيا سـاكنة مـن حولنا ونضرة، لم تصل إلى أسماعنا ضوضاء القطارات، لم تحلق فوقنا طائرة، لم يعبر قربنا أحد، ولم يرنا إنسان. فقـط

"تشيف" كان يبرز من وقت لآخر، من هذه الناحيـة أو تلـك وقد تدلى لسانه، ولكنه عند طرطشة الماء كان يجرى بعيـداً إلى النهر، فيلعق المياه منه بصوت مسموع، ومـن هنـاك يتطلع إلينا مستفهماً، ثم يعدو مختفياً فى الغابة..

استقرت باعوضة على كتفك، لكنك لم تنتبه إليها مدة طويلة، وأخيراً هششتَها بيدك وأنت تقطب وجهـك مقتربـاً منى، وقلت لى:

ـ الباعوضة.. قلصتنى..

حككت لك كتفك، ونفخت فيها، وربت عليها، وقلـت لك:

ـ والآن.. ماذا تنوى؟ هل ستواصل رمى الأحجار؟ أم نمضى إلى الأمام؟

وقلتَ مقرراً: نمشى إلى الأمام. حينذاك حملتك على ذراعى وخضت بك نهر "ياسنوشكا". كان علينـا أن نعبـر الوادى الضيق المشبع بالندى، الذى بدت فيه تيجان البقـول البيضاء المتكاثفة كأنها رغوة كست الوادى منصهرة تحـت حرارة الشمس متموجة فى خطوط غمرهـا النحـل بطنـين

سعيد.. ارتفع الممر إلى أعلى بين شجر الشربين والجـوز، وعلا وسط أشجار البتولا والبلوط، إلى أن انتهى عند مـرج واسع تحده من اليمين غابة،، ومن اليسار حقل متموج. طلعنا المرج إلى فوق حتى بلغنا ذروته، فبان الأفق البعيـد، ولاح فوق مدينة "زاجورسك" ـ التى لا نراها ـ ضباب رقيـق، تبينا منه بصعوبة أعمدة الاستقبال التلفزيونية. كان واضـحاً أن الحصاد قد بدأ فى المرج، إذ كان الدريس ملقى أكوامـاً فوق الأرض والنسيم يهب مفعماً برائحته الضعيفة.

جلسنا فى موضع لم تُحصد أعشابه وزهوره بعـد، فطالتْ كتفى وأنا جالس على الأرض، ومشيتَ أنت تخوض برأسك بين الأعشاب والزهور، لا يظلك شىء سوى السماء، وتذكرتُ التفاحة، فأخرجتها من جيبى ودعكتها فى العشـب حتى لمعت، أعطيتها لك، فتناولتها بيديك الاثنتين، وقضمتَها على الفور، وبدا أثر القضمة فى التفاحة كأثر قدم السنجاب.

من حولنا امتدت أرض "رادنيجسكى، واحـدة مـن أعرق الأراضى الروسية، إحدى المدن الهادئة التى دخلـت فى نطاق مدينة موسكو. وعند طرف الحقل حلقـتْ عاليـاً حدأتان. حلقتا ببطء وانسياب فى مدار متكرر. لم يبـق لنـا

شىء من ذلك الماضى، تبدل كل شىء، الأشجار والغابـات، بل والأرض نفسها، واندثرت المدينـة القديمـة "روديـنـيج" وكأنها لم تكن، لم يبق منها سوى الذكريات، هى كل ما تبقى لنا، وهاتان الحدأتان اللتان تحلقان فى الدوائر، كأنما منذ ألف عام.. ولعل نهر "ياسنوشكا" مازال يتدفق فى نفس المجـرى القديم..

فرغتَ من أكل التفاحة، لكن كان واضحاً أنك سارح فى عالم آخر.. أدركتُ ذلك. كمـا لاحظـتُ أنـك لمحـت الحدأتين وأتبعتهما بصرك طويلاً. طارت بعض الفراشـات فوقك، البعض منها شده لون سـروالك الأحمـر فحاولـتْ الوقوف عليه، ولكنها كانت تحلق مرتفعة فى الحال، وبصرك لا يفارق طيرانها البهيج.

تكلمتَ معى باقتضاب، وكان باديـاً علـى عينيـك ووجهك أنك تفكر طوال الوقت فى شىء ما. يا إلهـى، كـم تمنيتُ أن أكون أنتَ ولو لدقيقة واحدة، لأعرف فيم تفكـر.. لقد تغيرتَ وأصبحتَ إنساناً!

كان عالمنا مباركاً سعيداً، لم تنفجر فيه قنبلـة، لـم تحترق مدنه وأشجاره، لم يتجمد فيه الأطفـال مـن البـرد

القارس، ولم يدوم فيه ذباب الموتى فوق جثثهم الملقاة علـى الطريق، ولم يسيروا فى ثياب بالية تشغى بالقمل، ولم يعيشوا فى الخرابات وكأنهم وحوش. الآن أيضاً انهمـرت دمـوع الطفولة وسالت، لكن لسبب آخر تماماً.. تماماً. أليس ذلك من الغبطة؟ أم ماذا؟ أليس من السعادة؟ أم لماذا؟.

التفتُ حولى مرة ثانية وأنا أفكر: لعل أحداً غيرنا لم يشاهد هذا اليوم، وهذه السحب التى تتمهل فوقنا فـى هـذه اللحظة، والنهر الجارى تحتنا فى وسط الغابـة، والحصـى الذى ألقته يداك ومازال راقداً فى القاع وخيوط الماء الصافى تلتف من حوله، وهذا الهواء الحقلى والممشى الأبيض الـذى وطأناه فى الحقل بين جدارين من الشوفان الذى بدا كأنما قد جرت عليه خيوط زرقاء وفضية من الجليد، لعل أحداً غيرنا لم يشاهد القرية الصغيرة الواقعة بعيداً والأفق يرتجف مـن خلفها. سيظل هذا اليوم فى وجدانى إلى الأبـد، مثـل أيـام أخرى مضيئة فى حياتى، لكن هل ستتذكر أنتَ هذا اليـوم؟ فتتجه ببصرك ـ يوماً ما فيما بعد ـ محدقاً بعمق إلى ذلـك الماضى البعيد؟ فتحس أن السـنوات التـى انصـرمت لـم تنصرم، وترتد من جديد طفلاً صغيراً تجرى بـين زهـور

تطال كتفيك فتطير الفراشات فزعة منك؟ أمن المعقول، أمن المعقول أنك لن تتذكر نفسك، ولن تتذكرنى؟ أحقاً أنـك لـن تتذكر هذه الشمس الحارة التى تلفح كتفيك؟ وسـوف تنسـى تماماً مذاق هذا اليوم الصيفى الطويل وصوته الذى لا يشـبه الحقيقة فى شىء؟ أين ينطمر كل هذا؟ وبأى قانون غريـب ينقطع ويتوارى فى عتمة العدم؟ أين تنطوى أسعد الفتـرات الباهرة عند بداية الحياة؟ وأرق لحظات الطفولة؟

ضربتُ كفاً بكف من يأسى، لأن الزمن الذى يولـد فيه الإنسان، أعظم الأزمنة، يستتر ويضيع منا فى الظلمـة. وها أنت قد عرفتَ الكثير، واكتسبتَ ملامحـك الشخصـية الخاصة بك، وصارت لك عاداتك، وتعلمت الكلام، وأصبحتَ تفهم اللغة أفضل مما تتكلمها، وأضحى لديك ما "تحبه"، ومـا "لا تحبه". واسأل أى إنسان، سيقول لك الجميع إنهم يتذكرون أنفسهم من عند السنة الخامسة أو السادسة مـن أعمـارهم، وماذا عما قبل ذلك؟ أم ترانا لا ننسى شيئاً؟ فيتردد علينا ريق الأيام الأولى والطفولة الباكرة وممضاً خاطفاً؟ ألم يحدث لكـل منا تقريباً أن يرى شيئاً مألوفاً وعاديـاً كبركـة ميـاة فـى الطرقات الخريفية، أو يستمع إلى صوت من الأصـوات، أو

يشم رائحة ما فيرتجف مذهولاً من خـاطر مكهـرب: لقـد شاهدت ذلك من قبل، لقد وقع فيما مضى، لقد عشت ذلـك، أين؟ ومتى؟ هل جرى ذلك فى حياتى هـذه؟ أم فـى حيـاة أخرى؟ ويضنى كل منا نفسه لكى يتـذكر، ولكـى يسـتعيد ومضة مما مضى، بلا جدوى..

حان ميعاد نومة الظهيرة، رجعنا إلى البيـت وكـان "تشيف" قد سبقنا إلى هناك، ودعس لنفسه موضعاً فى العشب المتكاثف بجوار البيت ومط جسده غافياً ويده ترتجـف مـن وقت لآخر. عم الهدوء أركان البيت، وفاض ضوء الشـمس من النوافذ على الأرض قطعاً مربعة منيرة. وفى غرفتـك، بينما رحتُ أخلع عنك ثيابك وألبسك "البي'امـا"، كنـتَ قـد تذكرتَ كل ما رأيته فى الصباح وسردته على. فـى ختـام كلامنا، تثاءبتَ بقوة مرتين. أرقدتك فى فراشـك وقصـدتُ غرفتى، ولعلك رحتَ فى النعاس من قبـل خروجـى مـن عندك.

جلستُ عند نافذة مفتوحة، وأخذتُ أدخن وأنا أفكـر فيك. وتصورت سنواتك المقبلة، ومن الغريب أننى لم أود أن أراك كبيراً تحلق ذقنك وتدخن السـجائر وتغـازل البنـات،

ولكنى تمنيت لو أراك أطول زمن ممكن - لا صغيراً كمـا كنتَ حينذاك فى ذلك الصيف - لكن وأنت فى العاشرة مـن عمرك تقريباً. أى تجوال وتطواف كنا سـنقوم بـه معـاً.. وحينها ما الذى كنا لن نهتم به؟

رجعتُ إلى الحاضر، ومرة أخرى فكرتُ واجماً فى أنك أكثر حكمة منى، وأنك تدرك أمراً ما أمراً أدركتُـه أنـا أيضاً فى زمن ما، لكنى الآن لا أذكره.. فقد نسيته. وفكرتُ فى أن هذا الكون الشاسع بكل ما به، مخلوق لكى نرنو إليـه بعينى الطفولة، وأن: "هذه المملكة الإلهية ملكك أنت". ليست جديدة هذه الكلمات، فلقد قيلت منذ زمـن بعيـد، وإذن فقـد أحسوا منذ ألف عام مضت بالتفوق المبهم للأطفال علينـا.. فما الذى أعلاهم علينا؟ أهى البراءة؟ أم شىء آخـر؟ أهـى معرفة رهيفة من نوع خاص؟ معرفة تتلاشى مع تقدم العمر؟

انقضت أكثر من ساعة وأنا جالس أفكر. تزحزحـت الشمس من مكانها بصورة ملحوظة، واستطالت الظلال فـى الأرض حين شرعتَ تبكى.

فركتُ السيجارة فى المطفأة وقصدتُ غرفتك معتقداً أنك بحاجة لشىء ما. كنتَ نائماً تبكى وركبتاك مضـمومتين

إلى صدرك ودموعك التى همتْ بغزارة قد غمرت وسادتك. كان بكاؤك فى الحلم مريراً. استيقظتَ. كنتَ تنشج يائساً من دون أمل. لم تكن تبكى بهذه الصورة وأنت مستيقظ، وكنـت ببساطة ـ إذا أصابتك رضوض أو ركبت رأسك نـزوة ـ تجهش بصوت مرتفع. لكنك الآن كنتَ تبكى كأنما تنعى أمراً ما يودعك مفارقاً للأبد. وكانت أنفاسك مختنقة من النحيـب، صوتك أيضاً كان مختلفاً.

ليست الأحلام إلا انعكاساً مشوشاً للواقع، ولكـن إن كان الأمر على هذا النحو فأى واقع تراءى لك فى أحلامك؟ وما الذى أبصرته سوى نظراتنا المحبـة والرقيقـة؟ سـوى ابتساماتنا، وألعابك الصغيرة، والشمس والقمر والنجوم؟ وما الذى سمعته عدا خرير المياه، وحفيف الأشـجار، وزقزقـة الطيور، وصوت المطر المهنهن فوق سقف البيت وأغـانى المهد؟ ما الذى أمكنك أن تعرفه من هذه الدنيا سوى هنـاءة الحياة اللينة؟ فلماذا يكون بكاؤك فى الحلم مريراً إلـى هـذا الحد؟ وأنت لم تعان شيئاً، ولم تندم على ماض، ولـم يكـن يلوح لك رعب الموت؟ ما الذى حلمت بـه؟ أم أن أرواحنـا تجزع فى الطفولة خشية الآلام المقبلة؟

أخذتُ أنبهك بحذر لتفيق، وأنا أربت علـى كتفـك، وأمر بيدى على شعر رأسك. وهززتُ يدك برفـق قـائلاً: "اصح يا بنى، يا حبيبى، قم يا آليوشـا، قـم يـا حبيبـى". واستيقظتَ فجلستَ على الفور فى سريرك وأنت تمد ذراعيك نحوى. ورفعتك وضممتك إلى صدرى بقوة، متعمداً أن أكرر ما أقوله بصوت نشط: "ما بك؟ ماذا جرى لك؟ لقد كان حلماً لا أكثر.. انظر.. أية شمس؟" أزحتُ السـتائر جانبـاً عـن النافذة، فامتلأت غرفتك بالنور، ولكنك واصلتَ البكاء وأنـت تدفن وجهك فى صدرى وتشد أنفاسك المتقطعة وقد تشـبثت أصابعك برقبتى بقوة حتى آلمتنى..

قلتُ لك: "الآن سوف نتغدى.. انظر.. آها.. ما هـذا الطائر الذى يحلق هناك؟ وأين يا ترى القط "فاسا" الأبـيض المنفوش؟ آليوشا؟ إيه.. آليوشا يا حبيبى.. لا تخـف.. لقـد انقضى ذلك.. ترى من يمشى هناك؟ أهى ماما؟". قلتُ لـك كل ما عن لى من كلمات علّنى أشغلك عما بك.

ورأيتك تهدأ بالتدريج، وكان فمك لا يزال مشـدوداً متشنجاً مما عانيته، إلا أن ابتسامة بدأت تلوح على وجهـك، وأخيراً أشرق محياك، ونّور حين سقط بصرك على الإبريق

الخزفى الصغير المعلق فى مسمار عند النافذة، وكنتَ شـديد التعلق به، فنطقتَ برقة مستمتعاً بلفظ الكلمـة فحسـب: ا.. بريـ.. ق.

لم تمط جسمك نحوه، ولم تحاول أن تقـبض عليـه بيدك، كما يختطف الأطفال عادة ألعابهم المفضلة، واكتفيـتَ بالنظر إليه بعينيك اللتين غسلتهما الـدموع، فبـدتا نقيتـين بصورة خاصة، وبهدوء تمليتَ الإبريق وطلاءه المزخرف..

غسلتُ لك وجهك، وأحطتُ رقبتك بفوطة ورقية، ثم أجلستك إلى المائدة.. وبدا لى فجأة أن شيئاً ما قد طرأ عليك، إذ أنك لم تدق بقدمك أطراف المنضدة، بل ولم تبتسم، ولـم تقل لى كالعادة: "بسرعة عاوز آكل"، لكنك أخـذتَ تحـدق صامتاً إلى بنظرة ثاقبة وجديـة. ودهمنـى إحسـاس بأنـك تفارقنى، وأن روحك التى اندغمت فى روحى حتـى هـذه اللحظة تنأى الآن عنى، وأنها سوف تنأى ـ أبعد فأبعـد ـ مع كل سنة تنقضى، وأنك الآن لـم تعـد أنـا، ولـم تعـد استمرارى، كما أن روحى لن تلحق بك بعد الآن، أبداً. إنـك ترحل إلى الأبد.

ورأيتُ فى نظرتك العميقة التى لم تعد طفولية روحك

التى تهجرنى وهى تتطلع إلى معذَبةً، رأيتها تـودعنى إلـى الأبد. واندفعتُ إليك، محاولاً أن أظل بقربك علـى الأقـل، ولكنى أدركت أننى غير قادر على اللحاق بك، فحياتى تشدنى بقوة إلى طريقى السابق بينما تمضى أنت ـ من هذه الحيـاة ـ إلى طريقك الخاص. وشملنى يأس لا يوصف، وغمرنـى ألم لا حد له، ومع ذلك، فقد تردد فى صدرى صـوت أمـل واهن فى أن روحينا ستتحدان، فى وقت ما مـرة أخـرى، بحيث لا تنفصلان بعدها أبداً. نعم.. لكن متى وأين سـيكون ذلك؟

بصعوبة بالغة أمسكت نفسى عن البكاء يا أخى وابنى الحبيب..

ولم يكن عمرك فى ذلك الصيف يزيـد عـن العـام ونصف العام

أوليا

فى زمن ما.. كانت تعيش فى دنيانا طفلـة رائعـة، نسيها الآن جميع الناس بل ونسوا اسمها كذلك، فلم يعد أحـد يتذكرها أو يتذكر وجهها، باستثناء جدتى التى لم تغب تلـك الطفلة الرائعة عن ذاكرتها، فحكت لى عنها، وعمن كانت..

قالت جدتى إنهم أطلقوا على تلك الطفلة اسم أوليـا. وكان كل من يرى أوليا الصغيرة يستشعر فى قلبـه وخـز الضمير حين يستيقظ، لأن أوليا كانت حبيبة الوجـه، خيـرة الطبع، على حين لم يكن كل من يرمقها شريفاً وطيباً.

كانت ذات عينين واسعتين صافيتين شاهد كل الناس فى عمقهما، وفى أبعد نقطة فيهما. أحب وأهم ما فى الـدنيا، ولذلك تمنى كل إنسان أن يحدق فى عينى أوليا ليستجلى فى غورهما أقصى ما يبعث السعادة فيه.

غير أن أوليا كانت تطرف بعينيها، ولهذا لا يستطيع أحد أن يستبين ما فى عمق مقلتيها الرائعتين.

وذات مرة، نظر البعض إلى عينى أوليـا، وحـين شرعوا يلمون بشىء مما يبصرونه طرفت أوليا بعينيها مرة

ثانية، فاستحال على الناظرين أن يحيطوا بكل ما فى غورهما البعيد.

بيد أن شخصاً ساعفه النظر واستطاع أن يمده إلـى أقصى مدى فى عينى أوليا، وهناك لمح ما كان. كـان اسـم ذاك الشخص دميان، عاش على شراء الحبوب رخيصة مـن الفلاحين فى سنوات المحصول الوافر ثم بيعها غاليـة فـى السنوات العجاف، وبهذا كان على الدوام يحيـا فـى ثـراء ورفاهية.

فى قاع عينى أوليا رأى دميان صورته، ليس كمـا كان يبدو للناس وإنما كما كان فى دخيلته حقاً: "شدق بشـع ونظرة وحشية". لقد ارتسمت على وجهه روحه غير المرئية واضحة فى عينى أوليا. وما كاد دميان يرنو إلـى صـورته حتى ارتحل عن مكان معيشته ومنذ ذلك الحين انقطعت عن الناس أخباره فترة طويلة، وأخذوا ينسونه شيئاً فشيئاً.

فى عينى أوليا كانت تنعكس الحقيقة الخالصة فقـط. فلو أن شخصاً قاسى القلب، جميل الوجه فاخر الملبس نظـر فى مقلتيها لتجلى فيهما بشعاً تتآكله القروح بدلاً من الزينة.

أما أوليا نفسها فلم تكن تدرى أن الحقيقة تنعكس فى عينيها. كانت ما تزال صغيرة، لا تدرك.

وبالرغم من أن باقى الناس لم يستطيعوا أن يلمحـوا صورهم فى عينيها، إلا أنهم جميعاً هاموا بها، وقـدروا أن الحياة بخير مادامت أوليا تحيا بهذه الدنيا.

لم يعرف أحد لأوليا أباً ولا أماً، فقد عثروا عليها فى الصيف تحت شجرة الصنوبر عند البئر وقـد مـرت علـى ولادتها عدة أسابيع، ملقاة على الأرض، ملفوفة فـى شـال دافىء، تتطلع نحو السماء فى سكون بعينين واسعتين يتبـدل لونهما: فمرة تبدوان رصاصتين، وأخرى سماويتين، وثالثـة سوداوين حالكتين. واحتضن الناس الأخيار الطفلـة فتبنتهـا أسرة قروية لم يولد لها طفل، وعمدتها باسم "أوليا".

وقضت أوليا كل طفولتها المبكرة فى كوخ والـديها بالتبنى. وكان يحدث عندما تنام أن عينيها تظـلان نصـف مغلقتين وكأنها تبصر بهما. وحين كان الفجر يقترب وينشـر نوره فى الكوخ، كان كل ما يبين فى الضوء خارج الشـباك ينعكس فى عينيها نصف المفتوحتين. كانت تنام على الدكـة فيضىء أول النهار وجهها. وكانت الحياة تعيش أولاً خـارج

الكوخ: فروع الصفصافة النامية خلف الشـباك، والسـحب المزدهرة بشمس وليدة هادئة، والطيور المحلقة. ثـم تعـيش ثانية حين تتألق فى عمق عينى أوليا. لكن السـحب وأوراق الصفصافة والطيور كانت تلوح أجمل وأصفى وأكثر بهجـة فى عينى أوليا مما تبدو للناس فى الطبيعة.

أحب الوالدان أوليا الصـغيرة حبـاً عميقـاً، فكانـا يستيقظان فى الليل من فرط شوقهما إليها ويغادران غرفتهما ويقتربان من أوليا، وفى العتمة يطيلان النظر إلى تلك الطفلة النائمة الغريبة التى صارت أحب إليهما من أى مخلوق فـى العالم. وكان يلوح لهما أن عينى أوليا تفتران عـن ضـياء فيفيض الكوخ الفقير بجو صبيح حينذاك، وكأن الوقت يـوم عيد من ماضى من شباب الزوجين.

قالت الأم بصوت هادىء:

ـ ستموت أوليا عما قريب.

نهرها الأب:

ـ اسكتى، لا تجلبى المصائب بمثل هذا الحديث. ما الذى يجعلها تموت وهى طفلة؟

قالت الأم ثانية:

ـ أمثالها لا يعيشون طويلاً.. إن عينيها لا تنغلقـان أثناء نومها.

كان الناس فى قريتنا يعتقدون أن الأطفال الـذين لا تنغلق عيونهم أثناء النوم يموتون فى سن مبكرة.

أكثر من مرة أرادت الأم أن تسدل بيدها جفنى أوليا وهى نائمة، لكن الأب أمرها ألا تلمسها وهى نائمة حتـى لا تفزعها. وكانت أوليا فى النهار تلعب بقصاصات الأقمشة فى ركن الكوخ، أو تسكب الماء بالتناوب من القصعة الفخاريـة فى كوب معدنى، فى هذا الوقت تحاشى أبوها أن يمسها كأنما خشية أن يؤذى جسمها الصغير.

نما شعر أوليا فاتح اللون يكسو رأسـها، وتجعـدت خصلاته كأن الريح دخلت ما بينها ثم تجمدت، أما وجهها فقد بدا ـ فى اليقظة أو فى النوم ـ جزعاً يمعن النظر فى اتجاه ما. لذلك كان الوالدان يحسبان أن أوليا تعانى لتسألهما عـن شىء يعذبها، لكنها لا تقدر، لأنها لم تكن تستطيع الكلام.

وتوجس أبوها أنها تكابد وجعاً مـا فاسـتدعى لهـا

الممرض لعله يخفف عنها.

أنصت الممرض إلى تنفسها وقال إن كل مـا بهـا سيزول حين تصبح كبيرة.

تساءل الوالد:

ـ لماذا يحبها الجميع هكذا؟ ليتها كانت أقل جمالاً.

قال الممرض:

ـ إنها تحفة الطبيعة.

استاء والداها وقالا:

ـ أية تحفة؟ إنها كائن حى وليست لعبة.

وحاول إناس آخرون، كما فى السابق، أن ينظـروا إلى عينى أوليا لكى يروا هناك من هم.. فى الحقيقة؟ ولعـل أحدهم قد رأى نفسه على حقيقتها لكنه لم يبح للآخرين بذلك قائلاً إن الفرصة لم تواته، لأن أوليا طرفت بعينيها.

وقد عرف الناس كلهم أن لون عينى أوليـا يتبـدل، فهى حين تشخص إلى ما هو خير، إلى السماء، إلى فراشة، إلى زهرة أو إلى عابر طريق فقير وعجوز، فـإن عينيهـا

تفيضان بضوء صاف، وهى حين تشخص إلى مـا ينطـوى داخله على الشر تعتم عيناها وتصيران حـالكتين. وكانـت صورة المرء أو الشىء الذى ترمقه أوليا تنعكس فى عمـق عينيها، فى منتصفهما، فى النور الذى يشع هناك جلياً ثابتـاً، فى هذا النور كان يبين المطموس سراً فى الأعماق ولا يراه أحد، فينعكس، لا كما يلمحه الناس من الظاهر، لكن يـنعكس على حقيقته.

بدأت أوليا تنطق فى عامها الثانى، وكـان كلامهـا قليلاً، لكنه واضح. وكان عدد الكلمات التى عرفتها محدوداً. شاهدت فى شوارع القرية وحقولها ما شاهده الجميع فـألفوه، لكن أوليا كانت تندهش بصورة دائمة مـن كـل مـا تـراه، وتصرخ من الرعب وتبكى أحياناً وهى تشير إلى ما نظرت إليه...

سألها أبوها وهو يرفعهـا إليـه دون أن يفهـم مـا يفزعها:

ـ ما بكِ يا حبيبتى أوليا؟ ماذا جرى؟ لماذا تحـدقين فى هكذا؟ أنا هنا معك.. تلك أبقار تمشـى إلـى حظيرتهـا هناك.. لا أكثر.

وتطلعت إلى أبيها برهبة كأنه غريب لم تره أبداً من قبل ثم انزلقت مذعورة إلى الأرض وفرت منه.

كذلك كانت أوليا تخاف أمها وتختبىء منها.

كانت تهدأ فى العتمة فحسب. هناك حيـث لا تـرى عيناها أى شىء.

كانت تستيقظ فى الصبح، وتعتزم أن تهـرب علـى الفور من البيت، فتمشى إلى صومعة الحبوب المعتمة أو إلى الحقل. وهناك فى الوادى الضيق، حيث الكهف الرملى كانت تقبع فى الغبشة إلى أن يعثر عليها والـداها. وحـين كـان أحدهما يحملها على ذراعيه ويضمها إليه ويقبلها فى عينيهـا كانت تبكى خوفاً وجسمها كله يرتعد، وكأن والديها لم يكونـا يدللانها، بل كأن ذئاباً تتناوشها.

وكانت إذا لمحت فراشة هشة ترفرف فوق أعشـاب جعلت تصيح وتفر بعيداً عنها، ويستمر قلبها يخفق بالـذعر فترة. وكانت جدتى بالذات هى أكثر شخص تهابـه أوليـا. وجدتى تلك كانت طاعنة فى السن، إلى درجـة أن العجـائز الأخريات كن ينادينها بـ "جدتنا" وقلما ترددت جدتى علـى

الكوخ الذى تسكن فيه أوليا، وكانت - إذا توجهت إلى هناك - تحمل معها كل مرة هدية للطفلة: قرصـاً مـن الـدقيق الأبيض، أو سكراً، أو قفازاً من صوف تحوكه بالأبر أربعين يوماً كاملة، أو أى شىء مما تحتاج إليه طفلة..

قالت جدتى عن نفسها إنه كان مـن المفـروض أن تموت، فقد حان أجلها منذ زمن! والآن لا يمكنها أن تموت، ذاك لأنها حين تتذكر أوليا يتنفس قلبها الضعيف من جديـد، ويخفق كأنه قلب شاب يتنفس من محبته لأوليا، ومن عطفـه عليها، وفرحته بها.

لكن أوليا كانت ما أن ترى جدتى حتى تجهش بالبكاء على الفور، ولا ترفع عنها مقلتيها المعتمتين، بـل وتأخـذها رعشة من الخوف.

قالت جدتى:

- هذه البنت لا تبصر الحقيقة، فهى ترى فى الشـر خيراً، وفى الخير شراً.

تساءل أبوها:

- كيف ذلك؟ فى حين يـرى الآخـرون الحقيقـة

الخالصة فى عينيها؟

قالت الجدة ثانية:

ـ هكذا تضىء الحقيقة الكاملة فى عينيها، أما هـى نفسها فلا تدرك.. ويبدو لها كل شىء معكوساً. كان الأفضل لها لو أنها عمياء، فحياتها أشد مرارة من حياة العمياء.

فكر أبوها حينذاك: "بالفعل، أوليا ترى السيئ حسناً، والطيب قبيحاً، يجوز أن ما قالته الجدة صحيح؟".

لم تحب أوليا الزهور ولم تقربها أبداً، لكنهـا كانـت تجمع وسخ الأرض بطرف جلبابها وتذهب إلى مكان معـتم، وتلعب وحدها، تحرك الوسخ بيديها وقد أغمضـت عينيهـا. كذلك لم تصادق أطفال القرية، فكانت تولى عنهم راكضة إلى البيت.

صرخت أوليا:

ـ إنهم بشعون.. أنا خائفة.

ضمت الأم رأس أوليا إلى صدرها كأنما ابتغت لـو أخفتها فى قلبها لتطمئنها. ولم يكن الأطفال فى القرية مدللين، بل طيبين وأبرياء يميلون إلى أوليا ويبتسمون لها.

لم تستشف الأم ما يفزع أوليا، ولم تعرف مـا هـو الشىء الدميم فى هذه الدنيا الذى تبصره عيناهـا البـديعتان التعيستان دون غيرهما من العيون.

قالت لها:

ـ لا تخافى يا حبيبتى.. لا تخشى شيئاً يا ابنتى، أنا معك.

فنظرت أوليا إلى أمها وصرخت ثانية:

ـ أنا خائفة.

ـ من يخيفك هنا؟ هذه أنا.. أمك!

ـ أخاف منك.. أنتِ مخيفة!

وأطبقت أوليا عينيها لكى لا ترى أمها.

لم يدر أحد ما الذى تراه أوليا، ولـم تـتمكن هـى لذعرها من أن تقول شيئاً.

بنت أخرى نمت فى القرية، بنت اسمها "جروشـا"، وكان عمرها فى ذلك الوقت أربع سنوات. وفقط مـع هـذه البنت شرعت أوليا تلعب، بل وهامت بها حباً. وكان وجـه

جروشا مستطيلاً، ولهذا سموها "رأس الفرس". وكانت حانقة بطبعها، والأكثر من هذا أنها كانت تكره والديها وتردد أنهـا عما قريب ستفر من بيتها، ستفر بعيداً بعيداً، ولن تعود ثانية أبداً، هذا لأن: (هنا سيئ.. وهناك حسن).

طفقت أوليا تتحسس بيديها وجه جروشا، قائلة لهـا إنها جميلة. وراحت عينا أوليا تسرحان بوله فى وجه جروشا المتجهم الحانق كأنها تبصر أمامها صـديقة بهيـة الوجـه محبوبة وطيبة. وذات يوم، تفرست جروشا بالصـدفة فـى عينى أوليا، وساعفتها لحظة رأت فيها نفسها هناك، كما هى فى الواقع، فزعقت من الهلع هاربة إلى بيتها.

منذ ذلك الحين صارت جروشا أطيب قلبـاً، وكفـت عن الغضب على والديها، وعن تكرار أن البيت لا يرضيها. وكانت حين تنتابها من جديد مشاعر النقمة، تتـذكر هيئتهـا المخيفة فى عينى أوليا، فتصاب بالذعر من نفسـها، وتعـود مسالمة وديعة.

وعلى الرغم من أنه كان محزناً لأوليا نفسها أن ترى الوجوه الطيبة قبيحة، والورود أيضاً قبيحة، إلا أنهـا كانـت طفلة، وشأن كل الأطفال الصغار طعمت الخبز، واحتسـت

اللبن، فكبرت، ومضت الحياة، وما أسرع ما تمضى، فأتمت أوليا عامها الخامس ثم السادس فالسابع.

فى هذا الوقت عاد إلى القرية دميان، ذلـك الرجـل الذى كان قد هاجر منذ زمن، ولم يدر أحد حينذاك إلى أيـن ذهب؟ عاد بسيطاً وفقيراً، وجعل يحرث الأرض مثل بـاقى الناس. وعاش حتى سنوات شيخوخته رحيم القلب. بل وتمنى لو يأخذ أوليا لتعيش معه ابنة له فى بيته، لأنه عجوز ووحيد. لكن والدى أوليا رفضا ذلك، لأنهما، منذ حملاها إلى الكـوخ صغيرة، لم يعودا قادرين على الحياة بدونها.

فى عامها الخامس كفت أوليا عن الصراخ والهـرب فزعاً، وأصبح الحزن لا غيره يستولى عليهـا حـين تـرى أمامها إنساناً طيباً ورائعاً حتى لو كان جـدتى العجـوز، أو شخصاً آخر رقيقاً. وكانت تبكى فى أغلـب أوقاتهـا. لكـن الصورة الحقيقية لمن تنظر إليهم ظلت تسـطع فـى عمـق عينيها الواسعتين كما من قبل. أما هى نفسها فلم تكن تبصر الحقيقة، لكنها كانت تبصر الكذب. وكانـت عيناهـا وهمـا تطالعان الدنيا، كأنما تتجمـدان دهشـة ممـا تبصـران... صريحتان، حزينتان، لا تفهمان ما تراه.

حين أتمت أوليا السنة السابعة من عمرها، صارحها والدها بأنهما لا يمتان إليها بصلة قرابة، أما عـن والـديها الحقيقيين، فلا يدرى أحد أين هما، وهل هما فى عداد الأحياء أم الأموات؟ رأى والداها أن هذا هو التصرف السليم، ورغبا أن تعرف أوليا الحقيقة منهما لا من الغرباء الذين سيخبرونها بتلك الحقيقة فى يوم ما، لكن بطريقـة مؤلمـة تـؤذى روح الطفلة.

وسألت أوليا:

ـ وهل هما أيضاً مخيفان؟

أجاب والداها:

ـ لا.. إنهما والداك. ولا يجب أن يكون هناك مـن هو أحب منهما لديك.

وتنهدت أمها قائلة:

ـ أنتِ لا تبصرين الحقيقة يـا ابنتـى. إن عينيـك تالفتان.

وازدادت أوليا كآبة منذ ذلك الوقت. وانقضى صيف بعد ذلك، وقررت أوليا أن تهجر الكوخ عند حلول الخريـف

باحثة فى العالم عن والديها اللذين هجراها. ولكن لـم يكـد الصيف ينقضى حتى جاءت إلى القرية فلاحة متقدمـة فـى السن، تنتعل خفين من اللوف، حاملة على ظهرها بقجة خبز. وكان من الواضح أنها متعبة وأنها قطعت طريقاً طويلاً على قدميها.

وفى الطريق، حيث انتصبت شجرة الصنوبر العتيقة عند البئر، جلست المرأة، وأخذت تتطلع إلى الشـجرة. ثـم نهضت بعد ذلك وتحسست الأرض من حول الشجرة كأنهـا تبحث عن شىء ما، ملقى، ومنسى، منذ وقت بعيـد. بـدلت المرأة خفيها، ثم مشت صوب كوخ دميان، وقعـدت علـى المصطبة.

لم يكن هناك مارة فى الطريق، كان أغلب الناس فى ذلك الوقت يعملون فى الحقول. وظلت المرأة القادمة من بعيد جالسة وحدها فترة طويلة. حتى خرجت طفلـة مـن أحـد الأكواخ ونظرت إلى المرأة الغريبة وراحت تدنو منها.

قالت البنت ذات العينين الواسعتين صافيتى الضياء:

ـ أنتِ لست مخيفة.

ونظرت المرأة القادمة من بعيد إلى البنت، وأمسكتها من يدها، ثم ضمتها إليها وأطالت احتضانها.

لم ترتعد البنت، ولم تصرخ. وحينذاك قبلت المـرأة عين الطفلة، ثم الثانية، وانخرطت فى بكاء. لقـد أيقنـت أن أوليا ابنتها، ميزتها بقلبها الذى ارتعـش، ميزتهـا بعينيهـا، بالحسنة التى على رقبتها، وبتكوين جسمها الدقيق.

قالت المرأة:

ـ كنت شابة وغبية فرميتك للنـاس. والآن عـدت لآخذك.

التصقت أوليا بصدر المرأة الناعم الدافىء ونعسـت. قالت المرأة وهى تقبل عينى أوليا نصـف المغلقتـين: "أنـا أمك".

داوت قبلة الأم عينى أوليا فصارت تـرى الضـوء الأبيض المشمس بشكل مألوف مثل كل الناس. وأصبحت فى هدوء وثبات تتطلع أمامها، بعينين رصاصيتين، واضـحتين، ولم تعد تهاب أحداً. صارت ترى كل ما هـو طيـب علـى الأرض باهر، فى صورته السليمة، دون أن يلوح لها مفزعاً

ودميماً، وكفت عن رؤية الشر والقسوة رائعين كمـا كـان يحدث فى السابق وهى بلا أم. غير أنه منذ تلـك اللحظـة، اختفى ما كان يلمحه الآخرون فى عمق عينى أوليا، وتوارت منهما صورة الحقيقة المستخفية، ولم تحس أوليا فاجعـة أن الحق لم يعد يضىء فى عينيها، ولم تحزن أمها حين علمـت بهذا.

قالت أمها:

ـ لا يحتاج الناس إلى رؤية الحقيقة، إنهم يعرفونها من أنفسهم، أما الذى لا يعرفها فإنه لن يصدقها، حتـى لـو شاهدها بنفسه.

فى ذلك الوقت ماتت جدتى العجوز، ولم يعد بوسعها أن تحكى لى أكثر من هذا عن أوليا.

لكنى بعد مرور زمن طويل، رأيت أوليـا بنفسـى. كانت قد صارت شابة جميلة جمالاً أكثر مما يحتاجه الناس. لذلك امتلأ الناس بها إعجاباً.. لكن قلوبهم غدت فاترة نحوها

الألوان

لا أذكر أن لحظة مرت بى.. دون رسم.

وقد همت ـ أكثر من أى شىء ـ بـالتوقف عنـد الصور وإدامة النظر إليها.

ومازلت أحفظ ـ من ذكرياتى الأولـى ـ صـورة جلفر(١)، وهو راقد، وقد باعد ما بين ساقيه، وقـد مشـت بينهما طوابير الأقزام العسكرية، وكذلك اللوحات الملونة التى ازدانت بها كتب أساطير الأخوين "جريمـوف"(٢): حـذاء الكريستال، القنفذ، أكلة لحوم البشر، وحيـة فـى ذاكرتـى الصور السوداء الملحقة بأسطورة "الجنية"(٣)، ومـا تـزال تتردد بين جوانحى عبارة الجنية: "ارفعوا جفنـى، أنـى لا أرى.." لكنها تتردد وقد زادت "أى شىء"... "أنى لا أرى أى شىء".

كنت أرسم لا بالقلم، بل بالألوان المائية الرخيصـة التى كانت تباع حينذاك فى موسكو. ولم يكـن بوسـعى أن أبصر ـ بهدوء ولا مبالاة ـ العلب الورقية التـى تفتحهـا فتجدها مشتملة على دوائر الألوان المختلفة.

ولم أكن ألهو بالألعاب المألوفة، ولكن اللعب فى موقد التنك الصفيحى كان داء قاتلاً يسيطر على. وفيما بعد ظهرت بعض اللعب ـ التى لم أتلقاها كهدايا ـ مثل الدب الخزفـى الصغير، الذى سيتحول إلى جزء من أساطيرى فـى وقـت لاحق، وكذلك الطيارة الورقية(٤) التى خرجت من بيضـة، وستصبح ملمحاً مما أرسمه، وهكذا انتقلت من الخيط الـذى يلتوى، إلى الأفعى، ومن الأفعى إلى تمثال "أوفيس الحكـيم"، وكان أبى قد أهدانى إياه قبل موته، فظل ذكرى منه.

ولم تكن الألوان عندى لهواً، بل عملاً متعباً.

فى الربيع، حينما كانوا يصبغون البـيض لاسـتقبال عيد الفصح، كنت ألح عليهم ليعطونى ما تبقى من صـبغة، وكذلك فرخ الورق الذى كانوا ينشرون البيض فوقـه بعـد انتشال البيض من الصبغة، ذلك أن آثار ألوان البيض وهـو يجف على الفرخ كانت تنشىء مختلف الأشـكال والرسـوم المدهشة. وكان بوسعى أن أرنو إلـى تلـك الأشـكال دون انقطاع لساعات طويلة، أطول مدة ممكنة طالما لـم يصـب الدوار رأسى، كنت أزر عينى وأرصد موجات الضوء مـن اللون السماوى وهى تسبح متكاثفة عند أهدابى الفضية إلـى

عينى، أو استغرق - من دون أن أزر عينى - فى التحديق إلى قصاصات الحرير متعددة الألوان فى اللحاف المضرب.

وكنت أتناول كل ما يقع تحت يـدى مـن أدوات - شرط أن تكون معدنية - ولم يكن هناك شىء يفوق ميلى إلى قلابة الحطب فى المدفأة، الحديدة الضخمة التى لا يعرف أحد كيف آلت إلينا، فلم يكن بدارنا مدفأة، وكنتُ آخذها وأذهـب إلى إحدى الغرف فألصق أذنى بالحائط وأسد أذنى الأخـرى بأصبعى، ثم أضرب الحائط بالحديدة، وأظل ساعات أسـتمع إلى رنين الصوت المتردد، الذى ينداح وهو يعلو سابحاً فـى موجات ملونة.

لم يكن اللون والصوت عندى لينفصلان.

وكنت أميز أجراس الكنائس، ليس بأصواتها فحسب، فقد كان كل جرس يصطبغ عندى بلونه الخـاص: فجـرس كنيسة "روبلوف" كان يرن فى أذنى أزرق اللون، سابحاً فـى موجة من النجوم الفضية، وكان جرس كنيسة "سـيمونوف" النائية يرن نحاسياً أخضر اللون، أما جرس كنيسـة "إيفـان العظيم" فكان يسرى وينفذ حتى مـن خـلال أطـر النوافـذ المزدوجة فى البيوت البعيدة عند بوابة موسكو، ويصب فـى

روحى مثل فيضان نهر موسكو: أحمر داكن الحمرة، وغامق مخملى.

كان بوسعى أن أحدد اللون من الصوت، ومن لـون المرء كنت أحدد صوته.

وكان عندى قِطٌ لم يفارقنى طيلة سبع سنوات، سموه "ناحوم" على اسم القديس ناحوم، وضعته قطتنا مـع بـاقى قططها الصغيرة فى يوم مولدى، واختصـونى بـذلك القـط لتسليتى. وكان ميلادى فى بيتنا الواقع خلف نهـر موسـكو، عند الجسر الحجرى المبنى تمجيداً لذكرى "فانكا كاين"، هناك فـى زقـاق "تولماتشوفسـكى الكبيـر" قـرب معـرض "تريتيكوفسكى".

نمت عاماً واحداً، واستيقظت فى السنة الثانيـة مـن مولدى على رنين أجراس الكنائس بالسـاحة الحمـراء، لـم يخفت ذلك الرنين الأول فى ذاكرتى، ولـم يـزل انسـجامه المميز، والمؤكد أنه هو الذى ولّد فى نفسى قـدرتى علـى تمييز كل ما هو روسى أصيل حقاً، مما هو زائف. فى السنة الثانية من مولدى، انتقلت بنا أمى إلى مسكن آخـر بشـارع "السد"، ومنه انتقلنا ـ تحت رعاية أخوالى ـ إلـى "الجسـر

المرتفع"، وهناك أسكنونا جناحاً منعزلاً بالقسم الخلفـى مـن الدار، وكان يطل على جسر "يارسلا"سـكى". وكـان ذلـك الجناح فيما مضى، مصبغة ومدبغة لوالد جدى وكان معلـم صباغة يشرف على العمل بنفسه. إلى جوار المصبغة تتابعت عدة غرف صغيرة، كانت تابعة لمصنع ورق "نايـديون"، جعلوها لمعيشة العمال.

من بيتنا القديم خلف نهر موسكو، انتقل معنـا إلـى المسكن الجديد القط "ناحوم".

وكان القط أخضر العينين، ذا شوارب بيضاء طويلة وشعره المنتفش رصاصى اللون، ولا ينام إلا قرب سريرى، فإذا جلست منهمكاً فى ألوانى، وجدته دائمـاً حاضـراً إلـى جوارى، وبدا لى أنه كائن كبير، تحيطه هالة من النور، مثل نور يوم غائم هادىء يشيع الأحلام بلا نهاية، وكنت أنسج له الأساطير من خيالى، وأكلمه، فينصت إلى بانتباه، وبدا لـى فى بعض الأوقات أنه بدوره يقول لى شيئاً ما، وكنت أصيخ السمع باذلاً كل جهدى لأفهمه. وعشنا معاً صديقين على ذلك النحو، أنا أرسم، وهو ينظف وجهه ببراثنه، ولم أضـربه أو أعذبه أبداً، ولا أعرف صحة ما يقوله الناس: "القـط يحـب

خناقه"، لكن الأرجح أن القطط تصبر على مـن يؤذيهـا لا أكثر. وكنت أضمه إلى بحرص، ولم أقرصه أبداً أو أجذبـه من ذيله، لكنى كنت أصبغ شعره بالألوان التى أحبها.

لقد هِمتُ بالألوان، وتعلقت حتى برائحتها المميزة.

ولو سألونى حينذاك "من تود أن تكون حينما تكبر؟"، لأجبتهم بلا تروى: "أريد أن أصبح واحداً من عمال الطـلاء والنقاشين عند صمويلوف". وصمويلوف كبير القساوسة فـى الكنيسة، كان أشقر فى شبابه، والآن صـار شـعره أشـيب يخالطه لون أخضر خفيف، وكان يبدو لى فى هيئة "يوسـف النجار" وهو واقف يوم الجمعة الحزينة خلف الهيكل بالكنيسة يخرج الثوب المرسوم عليه صورة المسيح، ثم يرتل باكيـاً بدموع تتألق بلون ذهبى من انعكاس النـور الأرجـوانى للشموع المحترقة عليها.

وكان صمويلوف معلم طلاء، يستعين بمجموعة من العمال تعيش فى القبو ببيته الأبيض المؤلف من طابق واحد، ناصع النوافذ، بزقاق "فارابينسكى".

وقد بدت لى وجوه البشر عامة مضـيئة، وخاصـة

وجوه النقاشين التى تراءت لى أكثر استنارة مـن غيرهـا، وبالذات "ماتفى"، وكان ممشوق القوام، يحسن ترتيل الألحان الكنسية بصوت رقيق، يشبه موج الرنين العذب الذى ينـداح فى الجدار حينما أطرقه بعامود الحديد، كان يرتـل بضـياع معذب وبنبرة غاربة كلحظة الشفق، وحينما كانت روحه تنوء بأثقال كل ما جرى له فى حياته، وكل ما لن يقع له أبداً، كل ما قد رآه، وكل ما لن يراه أبداً، حينذاك، كان يرتل بصوت كأنه يوم غائم.

وكان يتحدث بطريقة تبعث على الضحك، هذا غيـر جمله التى يرسلها مقفاة، مؤكداً كلامه بالحكم والأمثال علـى طريقة الأب "فاكوم"، بينما تفوح منه ـ أثناء ذلك ـ رائحـة المعجون مثبت الطلاء طازجة ممتزجة برائحة زيت الكتان.

لا أتذكر ما الذى أسفرت عنه رسـوماتى حينـذاك، لكنى أذكر بقع الألوان وهى تنتقل من الورق إلى يدى، ومن يدى إلى المنضدة، ومنها إلى الأرض فتدوس فيهـا الأقـدام وتلطخ بآثارها مساحة أوسع، وذلك من سوء حـظ مربيتـى العجوز "بروسكو"ليا سيميونو"نا" التى خيل إليهـا أن كـل الأطفال بنات. فتقول لى: "لو أنك كنت صبية لنظفت الآن ما

وسخته". كان صوتها خاشعاً ومسالماً مثل عينيها الغائرتين، الصابرتين، ونظرتها المسدلة على هلع دفـين ورثتـه عـن أسلافها من الأقنان الغابرين.

فى فترة لاحقة، انتظمتُ فى الصف الأول، بمدرسة موسكو الرابعـة، وكانـت تقـع فـى بيـت قـديم ملـك "رازوموفسكى" بشارع "بـاكرو"ا" فـى مواجهـة حـانوت "بوتكينسكى" للتحف العتيقة، وحـانوت "تشويفسـكى" لبيـع الخبز. خارج الفصل انخرطت فى تسلية وحيدة هـى رسـم مختلف أشكال الذيول وخصل الشعر.

بعد انتهاء الدراسة، كنت أخرج مـع زميلـى فـى الصف "بوجال" وكان مثلى أخرق الطبع يمزق ثيابه - وكان الخياط "بول" قد فصل لكل منا بذلة ومعطفاً - وبينما نحـن فى طريق العودة كنا نمر على البيوت وندق الجرس عند كل مدخل فنزعج عطفة "ففيدسكى" بأكملها التـى ضـمت مـن السكان عدداً لا يقل عن الناس فى سوق "أفينا".

وفى الصباح، ونحن فى طريقنا إلى المدرسـة كنـا نطبع بالطباشير صورة الشيطان على ظهور المارة، وذلـك بأن ندعك بالطباشير راحة الكف واصبعين اثنين فقط، ومـن

لعابنا نرشق عينين وفماً مفتوحاً فى راحة الكف، ثم نخـبط العابرين كأنما سهواً على ظهورهم، فتنطبـع عليهـا تلـك الصورة، وكان كثير من الناس البسطاء والمعتدين بأنفسـهم يمضون وهم يحملون على ظهورهم ـ دون أن يعرفـوا أو يشاهدوا ـ ذلك الخـتم الطباشـيرى، الـذى يشـبه "الآس الدينارى" ببذلة المسـاجين، ويمضـون بـه مـن شـارع "بوكروفسكى" إلى شارع "ماراسـكايا" فـى المدينـة. ذلـك الشيطان الطباشيرى كان الرسم الوحيـد، الـواقعى، الـذى رسمته. على أية حال، لم يسأل أحد عن اسم تلك الصورة، لا فى شارع "ايليانكا" ولا فى "فارفاركا"، ولا فى "نيكولسـكايا"، ولا بأى زقاق من أزقة المدينة، ذلك أن أصغر وأغبى طفل، كان يشهق مدهوشاً حين يرى الرسم على ظهر أحد ويصيح: "يا الله.. شيطان هولندى"!.

ولكنى وحدى ـ من غير زميلى بوجال هذه المرة ـ كنت أرسم بالطباشير على الجدران التى كتب البوليس فوقها: "ممنوع الوقوف نهائياً فى هذا المكان".

ولم تكن رسومى تلك مفهومة لأحـد، مثلهـا مثـل ألوانى، فقد كانت كلها مرسومة على نحـو غيـر مـألوف،

وبفخامة غريبة، تشبه العالم غير المألوف الذى مضت فيـه حياتى المبهمة، والتى تخللها إحساس مضطرب ومرتجـف، كذلك الذى يحسه الإنسان فى حلم من الأحلام المخيفة.

وكنت أرى أحلامى كلها ملونة، وكل ما فيها ضـخم على حالته الأولى السابقة على كل شىء، ورافقت الأصوات العذبة تلك الأحلام وكنت أسمع بينها صوتى أنـا، يتـردد رناناً، سماوى اللون.

لقد صبغت الألوان كل ما وقع عليه بصرى ورأيته، وكل ما سمعته. أيضاً فقد تردد كل شىء فى أذنى أصواتاً.

وذات يوم، مثلما يحدث فى الأساطير، ألصقت أذنى بالأرض، وضعتها فوق حجر روسى وحشى، فإذا بـالحجر الوحشى الرمادى يكلمنى.

السفر

ذات يوم، فى أبريل، أدركت أنه لن ينقذنى إلا شىء واحد فقط: السفر. لابد من السفر. لا يهم إلى أيـن، وسـيان كيف: بالطائرة، أم على ظهر سفينة، فـى عربـة تجرهـا الخيول، أو حتى فى عربة نقل. لابـد مـن السـفر فـوراً. وللأسباب التى دفعتنى إلى هذه الحالة السيئة قصة أخـرى، تستغرق روايتها وقتاً طويلاً، فضلاً عن أنه لا داعى لـذلك. المهم أن الوقت كان فجراً، حين شرع الأرق يعذبنى دفعـة واحدة، وشعرت بصدرى يختنق. وفسر الأطباء ذلك بإرهاق عصبى، لكنى كنت أعرف أن هذا يعود إلى سبب آخر، ربما لأن الرعود كانت تتسكع هنا وهناك، وأن تيـارات الهـواء الدافىء قد وصلت إلى "بادولسك" وأخذت تتقدم نحو موسكو، لذلك يخيل إلى أننى أختنق، وأن الدم لا يصل إلـى مخـى، وأنى سأموت إن لم أفلت غداً من هذا القفص المبنـى مـن الجص، والورق الملصق على الجدران برسومه التجريديـة، والأرفف المطلية والكتب التى عليها، وجِلْد الكتب، والفطائر الصغيرة، والشـاى، والصـحف، والمنقاشـات، وأجـراس التليفون، والإيصالات، وأنواع الزعل، والآمال، والإرهـاق،

والوجوه الحبيبة. سأموت إن لم أفلت من كل ذلك.

ليس من السهل تفسير ما ينتاب المرء قرب الفجـر فى أبريل، حينما يرتج ليلاً برواز النافذة المفتوحـة للـريح، ويطقطق شريط الـورق الملصـوق أسـفل الشـباك وهـو ينسلخ(١).

وحل يوم رمادى، ثم انقلب بعد قليل فصارت السماء زرقاء صافية بلا سحب. وخرجت إلى الشـارع ـ للمـرة الأولى فى هذه السنة ـ من دون غطاء رأس، وقصدت إدارة تحرير إحدى الصحف كى أحصل منها على تكليف بمهمـة صحفية خارج موسكو، وأسافر فى الحال. وكان البعض من هذه الصحيفة قد دعانى ذات يوم لمأموريـة صـحفية والآن ليس مفهوماً لهم ما الذى أريده بالضبط. حكى لـى رئـيس تحرير قسم "الصناعة" ـ وكان رجلاً ضئيلاً معتلاً يرتـدى قميصاً من "الجرسيه" ـ فقال إنه تجرى على قدم وساق، فى مدينة "سالينكامسك" ومدينة "كاندابورج" عملية بناء المجمعات الضخمة لانتاج الورق، أما فى مقاطعة "تيومنسكى" فقد تـم اكتشاف آبار نفط جديدة. الأهم من كل هذا ما يحـدث فـى مقاطعة "إيركوتسكايا"، حيث يقومون ببناء حوض صـناعى

ضخم. وقال الرجل "أما إذا تحدثنا عن الصناعات الكيماويـة الكبرى، فلا يمكن إلا أن نشير إلـى مجمـع "نوفاينسـكى" للكيماويات، فقد انتهوا من بناء الأجنحـة الإضـافية لغـاز النوشادر، وعمليات التركيب، والتحويل، وهذا قبـل انتهـاء الفترة المحددة بمدة".

قلت له إن كل ذلك يثير اهتمامى على نحـو غيـر طبيعى، وبنفس الدرجة، لهذا بالتحديد لا أستطيع أن أختـار واحداً من هذه الأماكن بسهولة. وألمحت إلى أننى كنـت أود لو عثرت على موضوعات دراميـة مـن قلـب المصـانع والانتاج، مشكلة حامية تتكشف فيها مصائر الناس ومختلـف وجهات نظرهم فى الحياة.

وقال رئيس القسم على الفور: هـذه الموضـوعات ستجدها أينما شئت. وانعقد على وجهه تعبير غريب مزدوج من الشجن والغطرسة فى نفس الوقت. وكان، وهو يتحـدث معى يدحرج طوال الوقت بأصابعه فوق المنضدة قلماً مـن النوع الأجنبى.

شكرته قائلاً إننى سأفكر فى الأمر، وخرجت وفـى نفس الوقت خرج معى إلى الردهة شاب كان حاضراً معنـا،

ملتزماً الصمت أثناء الحوار. أخذنا نهبط على السـلم معـاً وفجأة وجه إلى سؤالاً:

ـ أنت تبحث عن موضوع يهزك؟

قلت له:

ـ طبعاً. إنها مشكلة. أحتاج إلى موضوع يـدفعنى للانفعال.. الانفعال عليه اللعنة! إننى أجد نفسـى بـلا أيـة انطباعات تحركنى. قد يبدو كلامى غبياً، لكنها الحقيقة.

وشعرت ببعض الخجل، كأننى اعترفت لأحد أننـى مفلس بلا نقود ورجوته أن يقرضنى. لكن هذا الشاب كـان يود مساعدتى بصدق، هذا ما أحسسته.

قال:

ـ إذا كنت تبحث عن موضوعات ذات أثر، فلـيس ضرورياً على الإطلاق أن تسافر إلى مكـان بعيـد.. إلـى "تيومين" أو "إيركوتسك"، أذهب إلى الأماكن القريبة "كورسك" أو "ليبتسك"، إنها لا تقل قيمة وأهمية عن سيبيريا أى والله.

سألته (وقد سعدت بينى وبين نفسى إذ أفصح بكلماته هذه عن رأيى الشخصى):

ـ أتظن ذلك؟ على أية حال أنـت محـق، فليسـت المسألة فى الكيلومترات..

عندما خرجت إلى الشارع كان منتصف اليوم مشمساً فى عزه. فى مواجهتى، عند مـدخل دار العـرض، وقفـت زحمة من النساء، مررت من بينهن ثم استدرت إلى اليسـار وتجاوزت التمثال الذى كان يقف حوله دائماً حشد من أهالى الريف بمعاطف طويلة والكاميرات بأياديهم. انحـدرت فـى الشارع العريض وواجهنى سيل ربيعى من البشـر، غزيـر ومتماسك، يتحرك ببطء. حدقت إلى أوجه الناس التى تتعاقب أمامى بلا نهاية، ثم تختفى خلف ظهرى متوارية بلا أثر فلا تلوح بعد ذلك فى حياتى أبداً. وفكرت: لمـاذا أسـافر إلـى "كورسك" أو "ليبتسك"، بينما لا أعرف ضواحى موسكو كما يجب. ولم أذهب إلى "ناوفومينسك" مرة واحـدة. ولا أدرى شيئاً عن "ميتيشى"، بل وهناك شوارع ومناطق فى موسـكو نفسها لم أشاهدها إطلاقاً.

بعد نصف ساعة، كنت أهبط من "الترولى بـاص" قرب المنزل الذى أسكن فيه. وتوقفت عنـد زاويـة شـارع "بيشانوى الثانى"، عند محل بيع أطعمـة المرضـى، تلفـت

حولى، وشاهدت الحديقة العامة، والأشـجار العاريـة مـن الأوراق، والأفرع الرمادية التى ضـاءت تحـت الشـمس، والدكك الخشبية المتراصة دائرة حول النافورة وقد جلسـت مجموعة من النساء والرجال المسنين المحالين إلى المعاش، يعرضون وجوههم للشمس. جلسوا متلاصقين، كـل خمسـة على دكة. لم أكن أعرف أحداً منهم. وكانت الشـمس تحنـو على جلودهم المجعدة المترهلة، بعضهم كان يبتسـم، بينمـا بدت وجوه البعض الآخر وقد تجمدت فى بلادة، قسم آخـر كان النعاس يغالبه.

توقفت قليلاً ثم اتجهت إلى مدخل المنـزل. دخلـت المصعد وارتفعت إلى الطابق السادس، هناك خرج جـارى "داشنكين" من شقته المواجهة لشقتى. مد لـى كفـه صـامتاً ليصافحنى. كفه التى ترتجف قليلاً طوال الوقت، ثم هـرول هابطاً على الدرج إلى أسفل. كان متعجلاً دوماً، يمشى مقوساً كتفيه إلى الأمام، وبعينيه هم رهيب لا يخبـو. كـان يعمـل "سمكرى" فى ورش تصليح الترموايات. اعتقدت جارتـه ـ التى تسكن معه بنفس الشقة ـ أنه رجل مجنون، فأبلغت عنه المستوصف النفسى تطلب أن يضعوه بالمستوصف. قبل ذلك

بعدة أيام جاءتنى ورجتنى أن أكتب أنا الآخر بلاغاً مماثلاً، أو على الأقل أؤكد أنه يحيل حياة زوجته وابنته التلميذة بالسنة الثالثة إلى جحيم بمشاجرات لا تنتهى. وكانت ضوضاء الشجار بل والعراك تتناهى إلى بشقتى فى كثير من الأوقات، وأحياناً كانت هذه الجارة وزوجها و "داشنكين" نفسه يندفعون خارجين من الشقة إلى بسطة السلم وهم يتشاجرون ويصرخون. وقد أكدتُ ذلك. لكنى فيما بعد تذكرتُ كل هذا فجأة، وسألت نفسى: لماذا كتبتُ ذلك البلاغ؟ إن بوسعهم أن يجرجروا الرجل إلى المستوصف بالفعل؟ وحين خطر لى ذلك توجهت إلى جارتى فى نفس المساء وطلبت منها أن تعيد إلى البلاغ الذى وقعته، لكنها قالت لى إنها قد أرسلته بالفعل، وطمأنتنى: لن يضعوه فى المستوصف.. كل ما فى الأمر أنهم سيخيفونه قليلاً.

لم يكن البلاغ كما هو واضح قد أحدث أثره بعد، لأن "داشنكين" عندما صافحنى، شد على يدى، وأشعرنى أنى صديق قديم، وحين هرول هابطاً على السلم، سمعت خبط حذائه الثقيل، ثم سعاله فى الطابق الثالث أو الرابع بصوت مرتفع، وأعقبه بالبصاق. لم يكن صبره يكفيه أبداً للوصول

إلى الشارع.

فتحت باب شقتى بمفتاحى ودخلتُ. كـان جيرانـى يطهون سمك "نافاجا" فى المطبخ. وتحتنا فى الطابق الخامس ـ حيث عاشت أسرة كبيرة من حوالى عشرة أشـخاص ـ عزف أحدهم على البيانو، فوصلنى الصوت. نظـرت إلـى نفسى فى المرآة، وبدا لى وجهى للحظة غريباً، خاملاً، وجال برأسى أننى لا أعرف الكثير عن نفسى

مزمور

بدا أول الأمر أن فأراً يخربش الباب. لكـن صـوتاً بشرياً تناهى غاية فى الرقة:

ـ ممكن أدخل؟

ـ ممكن. تفضل.

صرت مفاصل الباب.

ـ تعال واجلس على الأريكة.

(من عند الباب)

ـ وكيف سأمشى على خشب الباركيه؟

ـ امش بالراحة، ولا تقفز. هيه.. ما آخر الأخبار؟

ـ لا شىء.

ـ اسمح لى، من كان يبكى إذن صباح اليـوم فـى الردهة؟

(صمت ثقيل)

ـ أنا بكيت.

ـ لماذا؟

ـ ماما ضربتنى.

ـ لماذا؟

(صمت متوتر)

ـ لأنى عضضت أذن شوركا.

ـ هكذا إذن؟

ـ ماما تقول إن الولد شوركا لئيم. يتحرش بى دائماً ويسلبنى "الكوبيكات"(١).

ـ سيان، ليس هناك قانون يسمح لك بأن تعض آذان الناس بسبب الكوبيكات، والنتيجة إذن أنك ولد غبى.

(زعل)

ـ لست صاحبى.

ـ لا داعى.

(صمت)

ـ سيعود بابا، وسأقول لـه. (صـمت) سيضـربك

بالنار.

ـ آه.. هكذا.. فى هذه الحالة لن أعد لـك الشـاى. ولماذا أعده ماداموا سيضربوننى بالنار فى كل الأحوال؟

ـ لا.. أنت جهز الشاى.

ـ وستشرب معى؟

ـ عندك حلوى ملبسه؟ هه؟

ـ بالتأكيد.

ـ إذن سأشرب.

جسمان إنسانيان اثنـان. كبيـر وصـغير ـ قعـدا القرفصاء.. أبريق الشاى يغلى بجرس موسـيقى، مخـروط الضوء الكهربائى الساخن ملقى فوق صـفحة مـن كتـاب "جيروم. جيروم"(٢).

ـ أظن أنك نسيت القصيدة؟

ـ لا. لم أنس.

ـ طيب قلها.

ـ سأشـ.. سأشترى لنفسى حذاء..

ـ لبذلة السهرة، وسأغنى كل ليلة..

ـ مزموراً.

ـ مزموراً، وسأقتنى كلباً..

ـ ولن..

ـ لـ.. ـن اهـ.. ـتم..

ـ سنعيش بطريقة أو بأخرى..

ـ أو بأخرى بطريقة سـ.. نـ.. عـ.. ـيش.

ـ هذا هو. سيغلى الماء، فنشرب الشاى ونعيش.

(تنهيدة عميقة)

ـ سـ.. ـنـ.. ـعيش.

أزيز المياه. جيروم. البخـار. مخـروط الضـوء. الباركيه اللامع.

ـ أنت وحيد.

وقع جيروم على الأرض. انطفأت الصفحة.

(صمت)

ـ من قال لك هذا؟

(بوضوح هادىء)

ـ ماما.

ـ متى؟

ـ حين كانت تحوك لك الزر.. كانت تحوك تحـوك وتتكلم مع ناتاشا..

ـ سسس.. انتظر، انتظر، لا تتحـرك وإلا انـدلق عليك الماء المغلى.. أوف!

ـ ساخن.. أوف!

ـ خذ الملبسة التى تعجبك.

ـ أريد الملبسة الكبيرة هذه.

ـ انفخ فى الشاى.. انفخ.. وكف عن تحريك قدميك.

(صوت نسائى من الخارج)

ـ سلافا!

دق على الباب. صرير مفاصله يبهجنى.

ـ مرة أخرى سلافكا عندك. سلافكا، هيا إلى البيت.

ـ لأ.. لأ.. نحن نشرب الشاى.

ـ لقد احتسى الشاى منذ وقت قليل.

(صراحة ناعمة)

ـ أنا.. لم أشرب.

ـ فيرا إيفانوفنا، تفضلى شاى.

ـ شربت منذ قليل.

ـ تفضلى، تفضلى، لن أتركك..

ـ يداى مبلولتان.. كنت أنشر الغسيل..

(المحامى المذنب)

ـ إياك أن تشد ماما..

ـ طيب.. اتفقنا.. لـن أشـدها.. فيـرا إيفانوفنـا، اجلسى..

ـ انتظر، سأنشر الغسيل ثم آتى.

ـ عظيم. لن أطفىء موقد الكيروسين.

ـ سلافكا، تشرب وتروح إلى البيـت. تنـام. إنـه يعطلك.

ـ لا أعطله. أنا لا ألعب.

صرير الباب مزعج. مخروط الضوء يتأرجح فـى اتجاهات مختلفة. إبريق الشاى صامت.

ـ أترغب فى النوم؟

ـ لأ.. لا أريد. قص على حكاية.

ـ لكن عينيك مغلقتان من النعاس.

ـ كلا. لا تنغلقان، قص.

ـ طيب، تعال إلى هنا. ضع رأسك. إذن.. حكايـة؟ أية حكاية أقصها عليك؟ هه؟

ـ عن الولد.. إياه..

ـ عن الولد؟ لا يا عم.. هذه حكاية صـعبة. لكـن لأجلك أقصها.. هيه.. إذن، عاش ولد فى هذه الدنيا.. هيه.. صغير، عمره حوالى أربع سنوات، فى موسكو مـع مامـا، كانوا ينادونه سلافكا.

ـ آه.. مثلى؟

ـ ولد جميل جداً لكنه للأسف الشديد كـان مغرمـاً بالشجار، كان يتشاجر بأى شىء، بقبضة يده، بقدميـه، بـل وبالحزام. ذات يوم على سلم البيت شاف بنتاً من الشقة رقـم ٨، بنتاً رائعة جداً، حلوة وهادئة، ومع ذلك ضـربها علـى وجهها بالكتاب.

ـ هى التى تشاجر.

ـ انتظر. الكلام ليس عنك.

ـ عن سلافكا آخر؟

ـ آخر تماماً. المهم.. ماذا كنت أقول؟ آه.. وطبيعى أنهم كانوا يضربون سلافكا هذا كل يوم، لأنه كان يتشـاجر دائماً، ومع ذلك لم يرجع سلافكا إلى عقله،، ووصلت المسألة إلى درجة أنه ـ فى يوم بديع ـ تشاجر مع شوركا. أيضـاً كان هناك ولد باسم شوركا. المهم، بدون تفكير كثير، انقض سلافكا بأسنانه على أذن شوركا وطلع بنصفها، وهو ما لـم يحدث من قبل، وطبعـاً تصـاعدت الضوضـاء.. النـاس يضربون سلافكا فيصرخ، وشوركا أيضاً يزعق.. لكن الناس

بطريقة ما ألصقوا أذن شوركا بنوع من الصمغ، أما سلافكا فعاقبوه بالوقفة فى ركن ووجهه إلى الحائط.. وفجأة - وهو واقف - رن الجرس، وإذا برجل مجهول تماماً يظهر، رجل بلحية شقراء طويلة يرتدى نظارة ذات زجاج أزرق، وسأل بصوت جهورى: "قولوا لى من فضلكم.. من هو سلافكا هنا؟" ويجيب سلافكا: "أنا.. سلافكا". فيقول الرجل: "إذن استمع إلى يا سلافكا. أنا مراقب كل الأولاد الذين يتشاجرون، وسأضطر يا عزيزى سلافكا إلى إبعادك عن مدينة موسكو إلى "توركستان" ويدرك سلافكا أن العملية ليست بسيطة، فيندم من أعماق قلبه، ويقول: "أعترف.. أنا تشاجرت، ولعبت القمار عند السلم بـ "الكوبيكات"، وبدون إحساس كذبت على ماما وقلت لها إنى لا ألعب.. لكنى لن أفعل هذا مرة ثانية، لأنى سأبدأ حياة جديدة".

ويقول المفتش: "هيه.. هذه مسألة أخرى، وفى هذه الحالة لابد من مكافأتك على أسفك الصادق". وفى الحال قاد الرجل سلافكا إلى مخزن توزيع المكافآت. وهناك يرى سلافكا ما رآه البشر وما لم يروه من مختلف الأشياء. البالونات، السيارات، المطارات، الكرات المخططة،

الدرجات، الطبول. ويقول المراقب: "اختر لنفسك ما تشاء".. لكنى نسيت .. ما الذى اختاره سلافكا؟

(صوت ناعس عذب وعميق)

ـ الدراجة!

ـ بالضبط.. صحيح تذكرت.. الدراجة. وعلى الفور ركب سلافكا الدراجة وانطلق مباشرة إلى شارع "كوزنيتسكى موست" يتفسح ويضغط البوق، ويندهش الناس الواقفون على الرصيف: "يا له من شخص عظـيم سـلافكا هـذا.. بهـذه السرعة ولا يصطدم بالعربات"!

أما سلافكا فمشغول يضغط البوق منبهاً وهو يصـيح فى السواقين: "إلزموا يمينكم!" وتطيـر عربـات السـائقين وسلافكا يسرع بدراجته والعساكر يمشـون وهـم يعزفـون "مارش" مسموعاً يدوى فى الآذان..

ـ خلاص؟

صرير الباب. الردهة. الباب. الذراعان البيضـاوان الحاسرتان إلى الكوعين.

ـ يا لله. دعنى أخلع عنه ملابسه.

ـ عودى. سأنتظرك.

ـ لكن الوقت متأخر.

ـ لا.. لا.. بل ولا أريد أن اسمع.

ـ وهو كذلك.

مخروط الضوء. يبدأ الابريق فى الأزيز فوق الفتيل. جيروم لا يلزم أحداً ـ ملقى على الأرض. فى فتحة موقـد الكيروسين الصغيرة جحيم دقيق ومبهج. سأغنى كـل ليلـة مزموراً، وسنحيا بطريـق أو بـأخرى. نعـم أنـا وحيـد. والمزمور حزين. ليست لدى المقدرة على الحياة. أكثر مـا يعذب فى الحياة ـ الأزرار ـ إنها تسـقط كأنهـا تتحلـل. بالأمس هوى زر من الصدار. اليوم واحد آخر من البذلـة، وآخر من ظهر السروال. ليست لدى القدرة على العيش مـع الأزرار. لكنى أرى كل شىء، وأفهم كل شىء. لـن يعـود. ولن يطلق النار على. قالت ناتاشا فى الردهة حينذاك: "عمـا قريب يرجع زوجى، وسنرحل إلى بطرسبورج". أبـداً لـن يعود، لن يعود.. صدقينى. إنه مختف منذ سبعة أشهر. ثلاث مرات بالصدفة رأيتها تبكى. والدمع كما تعرفون لا يدارى.

لكنه هو وحده الذى فقد الكثير لأنـه هجـر هـاتين اليـدين البيضاوين الدافئتين. هو حر فى هذه المسـألة. إلا أننـى لا أفهم.. كيف استطاع أن ينسى سلافكا؟

أية بهجة يحملها صرير الباب.

اختفى مخروط الضوء. فى فتحة الموقـد ـ عتمـة سوداء ـ إبريق الشاى سكت منذ فترة. نور المصباح ينظر ـ عبر الستارة الرقيقة ـ بآلاف الأعين الصغيرة.

ـ أصابعك جميلة. كان لابد أن تصـبحى عازفـة بيانو.

ـ حين أسافر إلى بطرسبورج سأعزف من جديد.

ـ أنتِ لن تسافرى إلى بطرسبورج.. خصلات مثل هذه بالضبط تتدلى على رقبة سلافكا مثلك.. أتعرفين.. أنـا مهموم. وضع موحش إلى أقصى درجة. الحياة غير ممكنة. أزرار من كل جهة.. أزرار.. أز..

ـ لا تقبلنى.. لا تقبل.. لابـد أن أمشـى.. الوقـت متأخر..

ـ لن تخرجى.. هناك ستبكين.. هذه عادتك.

ـ غير صحيح.. أنا لا أبكى.. من قال لك؟

ـ أنا عارف.. أرى بنفسى.. ستبكين.. وأنـا هنـا أحس الوحشة.. الوحشة..

ـ وماذا أفعل؟ ماذا أنت فاعل؟

ليس هناك مخروط ضوء. لا يضىء المصباح عبـر الستارة الرقيقة. ظلمة. ظلمة. ليست هناك أزرار. سأشـترى لسلافكا الدراجة. لن أشترى لنفسى حذاء البذلة. لـن أغنـى المزمور كل ليلة. لا يهم. بطريقة أو بأخرى سوف نحيا..

الفاجعة

فى وقت معين من الصيف تَذيع عطور نبات الشـيح حتى يوشك المرء أن يفقد عقله. يسود الهدوء ويشع ضـوء القمر بينما يغمر روحك قلق مضن.

فى تلك الليالى الرحبة المضيئة، وفـى ذلـك الجـو المشبع بعطر لاذع يحلو للمرء أن يسرح بأفكاره فى حريـة وجرأة.. ولعله لا يسرح وإنما تتملكه أنـواع مـن الـرؤى ويحتشد فى نفسه شعور الترقب لشىء ما.

اختفيتُ بين الأعشاب خلف بسـاتين الخضـروات، وقلبى ينوء بسرور مبهم لا أعرف له سبباً، خسارة.. إن هذه الليالى قليلة فى حياتنا. ليلة من ذلك النـوع انطبعـت فـى ذاكرتى مدى الحياة. كان عمرى حينذاك اثنى عشر عامـاً. جلستُ فى البستان عاقداً ذراعى حول ركبتى وأنا أحدق إلى القمر بثبات حتى طفر الدمع من عينيى. فجأة.. سمعتُ صوتاً غير بعيد لإنسان يبكى بهدوء. التفت مستديراً فرأيت جارنـا العجوز نيتشاى. إنه هو.. نحيف صغير الجسم يمشـى فـى قميص طويل من الخيش ويبكى متمتماً بأشياء غير مفهومة.

لقد ماتت زوجته "براسكوفيا" منذ ثلاثة أيام مضـت. كانـت عجوزاً هادئة الطبع وديعة. عاشا وحيدين تماماً بعد أن تفرق أبناؤهما. وعاشت الجدة براسكوفايا لا يشعر بوجودها أحـد، كذلك لم يشعر بموتها أحد حين فارقت الحياة. عرفنا بموتهـا ذات صباح، وأخذ الناس يرددون:

"براسكوفيا.. العزيزة.. تصوروا؟".

حفروا لها قبراً، أنزلوها فيه، أهالوا عليها التـراب.. وانتهى كل شىء.

نسيت الآن هيئتها. كانت تدور حول السور تصـيح على الدجاج: "تسيب ـ تسيب ـ تسيب". لم تتحرش بإنسان فى القرية أبداً، ولم تسب أحداً قط. كانت موجودة، ثم اختفت. ذهبت عن عالمنا.

فى هذه الليلة المضيئة الجميلة، أدركت وطـأة مـا يحسه المرء حين يصبح وحيداً، حتى حين يلفه هـذا الجـو الرائع والدفء والأرض الأم التى لا تبعث على الخوف.

تواريتُ.

كان قميص العجوز طويلاً يصل إلى ما بعد ركبتيه،

أبيض باهر البياض فى ضوء القمر. أخذ يمشى ببطء وهـو يجفف عينيه بكمه العريض. كنت أشاهده بوضوح من مكانى فقد جلس غير بعيد.

ـ طيب.. سأهدأ الآن.. ونتحدث بالراحـة ـ قـال العجوز بهدوء وهو غير قادر على وقف دموعـه ـ اليـوم الثالث لعذابى، لا أدرى ما أفعل بروحى. أسقط فى يـدى.. افعلى أى شىء.

سكن قليلاً.

ـ يا للمرارة يا بارسكوفايا.. لماذا لم تنطقى بكلمـة فى اللحظة الأخيرة؟ هل كتمت عنى زعلاً؟ لو كنتِ بحت لى لصار الأمر أهون.. أما الآن فإننى أفكـر.. آخ.. آآه.. ـ ـ سكت ـ غسلناكِ وكفناكِ مثل أحسن الناس. جهز لكِ العراب سيرجى نعشاً جيداً. صحيح كان الناس قلة. أعـددنا وجبـة الأرز بالسكر. وارينـاكِ عند طـرف المقـابر حيـث ترقـد "دادوفنى".. فى منطقة جافة.. حسنة، ونظرتُ لنفسى مكانـاً هناك. لست أدرى ماذا أفعل بنفسى وحدى؟ هل أغلق الكوخ بالمسامير وأسافر إلى إبنى "بيتيا"؟ إن كان على إبنى فإنه لن يعترض، لكن امرأته.. أنتِ نفسك عارفه أنها لن تتفوه بشىء

لكن اللقمة ستقف فى حلقها. السفر خطر إذن.. يا للمصـيبة! بم تنصحينى؟

ساد الصمت.

وتملكنى الخوف. توقعـت أن الجـدة باراسـكوفايا ستنطق الآن بصوتها الحنون الصابر.

استمر الجد نيتشاى:

ـ أضرب أخماساً فى أسداس.. عند من أعيش؟ يـا رب حبلاً أشنق به نفسى وأستريح. ليلة البارحة نعست شوية وشاهدتك كما لو كنت تدورين حول السور تحملين بيضاً فى غربال.. دققت النظر فوجدت أنه ليس بيضاً، لكن كتاكيـت صغيرة صاحية. وبدا لى أنكِ تلتهمينهم واحداً بعـد الآخـر. تأكلين وتمتدحين مذاق الكتاكيت! يا إلهـى.. يـا للرعـب. استيقظتُ وأردت أن أنبهك لتفيقى من نومك ناسياً أنـكِ لـم تعودى موجودة. يا باراسكوفيوشكا يـا حبيبتـى.. فلـتمس كلماتى روحك ذاتها.

وطفق الجد نيتشاى ينوح بصوت مرتفع مرة أخرى.

حينئذ دب الصقيع حتى فى عظامى.

صار يعوى بطريقة غريبة، منخرطاً فى أنين ممتد:

ـ هيه.. هيه.. أوو.. ذهبتِ عنى.. وما فكرت.. أين أذهب أنا.. آه.. لماذا لم تتكلمى؟ لكنتُ قد استدعيت طبيباً من المدينة.. يشفى الناس على أياديهم.. لم تنطقى بشىء.. رقدت ومت! يمكننى أنا الآخر أن أفعل ذلك.

تمخط نيتشاى، جفف دمعه وتنهد:

ـ هل ذلك صعب عليك يا باراسكوفيوشـكا؟ هـل ترغبين فى العودة إلينا هنا؟ إنكِ تترددين على فى نـومى.. تعالى لى فى أحلامى، تعالى ولو باستمرار لكن فى صـورة طبيعية.. يعرف الشيطان وحده ما هى حكاية الكتاكيت فـى الحلم الأخير..

هنا بدأ العجوز يهمس بكلامه، فلم التقط نصف مـا قاله.

ـ بل كدت أقدم على الحرام.. وما فى هذا؟ تقع مثل هذه الحوادث، أنا سمعت بذلك، يدفنون الشخص ويتضح أنه لم يمت. فى قرية "كراى أوشكين" دفنوا امرأة لكنها أخـذت تئن فنبشوا القبر وأخرجوها. فى الليلتين المنصرمتين.. كنت

أطوف حول قبرك.. أرهف السمع لكنى لـم أسـتمع إلـى شىء.. وكنت قد حزمت أمرى بالفعل.. يقولون إن نوماً ثقيلاً يجثم على الإنسان فى بعض الحالات.. ويفكر الناس جميعـاً أنه توفى وهو لم يمت.. بل نائم فقط؟

عند هذا الجدارتعبت إلى أقصى درجة.

شرعت أزحف.. وأزحـف.. هاربـاً مـن بسـتان الخضروات. وانطلقت أجرى إلى بيت جدى. حكيت له كـل شىء. ارتدى جدى ملابسه، وعدت معه نقطع نفس الطريق.

سألنى جدى مدققاً:

ـ هل بدا أنه يكلم نفسه.. أم كأنما يتحدث معها؟

ـ بل كان يتحدث معها، وجعل يسألها النصيحة كى تدله على ما يفعل.

ـ سوف يجن ذلك التيس العجـوز. لا تسـتبعد أن ينبش القبر فعلاً. يجوز أنه شارب خمرة؟

ـ لا، إنه حين يسكر يغنى وينبسط ويتذكر ربه.

كنت أعرف ذلك.

حين تناهى وقع خطواتنا إلى نيتشاى لزم الصمت.

صاح جدى بشدة:

ـ من هنا؟

مر وقت طويل ونيتشاى لا يجيب.

ـ من هنا! إنى اسأل؟

ـ ماذا تريد؟

ـ أهو أنت، نيتشاى؟

ـ نعم..

اقتربنا منه. كان الجد نيتشاى جالساً علـى الأرض متربعاً على الطريقة التترية. رفع عينيه متطلعاً إلينـا مـن تحت. كان مستاءاً للغاية.

سأله جدى:

ـ من كان هنا سواك؟

ـ أين؟

ـ هنا.. لقد سمعتك.. كنت تتكلم مع شخص آخر.

ـ هذا ليس شغلك.

ـ طيب.. سأعثر على نبوت جامد أطاردك به الآن حتى باب بيتك لتجرى فلا تبص خلفـك. رجـل عجـوز.. وتجن؟ ألا تستحى؟

ـ إنى أخاطبها هى.. ولا أضايق أحداً..

ـ مع من تتحدث. إنها لم تعد موجودة، وليس هناك من تتحدث معه.. ماتت وواريناها التراب.

ـ بل إنها تتكلم معى.. وقد سمعت صوتها ـ أخـذ نيتشاى يعاند

ـ لا داعى لتعطيلنا.. ما الذى دفعكم إلى الحضـور إلى هنا والتصنت علينا؟

ـ طيب فلنذهب..

قال جدى وهو يرفع العجـوز مـن علـى الأرض، وأردف:

ـ لنمش إلى بيتى، عندى هنـاك زجاجـة فودكـا

منزلية، سنشرب وتخف عنك همومك..

لم يمانع الجد نيتشاى فى السير معنا. قال يكلم جدى:

ـ ما أصعب وضعى أيها العراب. لم تعد بى قوة.

ثم مضى بعد ذلك أمامنا وهو يتخـبط فـى مشـيته ويجفف دمعه بأكمام قميصه طول الوقـت. رحـت أتابعـه ببصرى من الخاف وهو يتحرك أمامى.. ضـئيلاً، قصـير القامة، قضت عليه الفاجعة. انهمرت دموعى أنـا الآخـر، بكيت بصوت خافت حتى لا يسمعنى جدى ويصفعنى علـى قفاى. أحسست الشفقة على الجد نيتشاى. كان جـدى يهـون عليه:

ـ من حياته سهلة؟ من الذى يهون عليه دفن إنسـان حبيب فى التراب؟ فإذا رقد الجميع من المصيبة إلى جواره.. فكيف ستسير الحياة؟ حدق فى.. كم مرة كان لابد أن أمـوت فيها؟ تحمل. تماسك وتحمل.

ـ خسارة.

ـ طبعاً خسارة.. لا يقال إلا ذلك. ولكن لـيس فـى وسعك الآن مساعدتها بشىء. فقط تعذب نفسك. ومحتمل أن

تموت. تماسك.

ـ أجل أعرف ذلك.. لكن قلبى احتـرق، لا شـىء الآن يطفىء نارى. حاولت أن أجرع الخمر، لكن نفسـى لا تتقبل شيئاً.

ـ ستتقبل. لماذا لم يجىء إبنك بيتيا إليـك ليحضـر الدفن؟ بالنسبة لابنك الآخر فإن المسافة بينكما طويلة، لكـن بيتيا..؟

ـ مسافر فى مأمورية. يا للشقاء.. أيها العـراب.. عمرى ما فكرت أنها ستموت.

ـ هكذا نحن دائماً.. يعيش الإنسان بيننا ويبدو وكأن هذا هو الوضع الطبيعى ولابد أن يستمر.. فإن مات نتحسـر عليه. أجل.. لكن أن يجن الإنسان من الكارثة فهـذه أيضـاً حماقة.

فى هذه الدقائق تبددت منى الليلة الهادئة الصـافية، ولم تعد تساورنى أية خيـالات، وانقضـت تلـك السـعادة المضيئة، غير المفهومة. وأسدلت أشـجان هـذا الإنسـان النحيف قصير القامة ستاراً على العالم الجميل. أذكر فقط أن

نباتات الشيح كانت كما من قبل تذيع فى الجو رائحتها الحادة والمرة.

استضاف جدى العجوز نيتشاى ليبيت عندنا. هنـاك رقدا على الأرض متجاورين، وتغطيا بمعطـف مـن فـرو الخرفان.

قال له جدى:

ـ سأحكى لك حادثة واحدة..

وبصوت هادىء أخذ جدى يقص:

ـ أنت لم تحارب يا نيتشاى ولا تعرف ما جـرى.. كانت الحالة حينذاك أفظع بما لا يقاس يا أخى، اسـمع هـذه القصة. كنت أخدم فى الجيش ممرضاً أقوم بنقل الجرحى إلى المؤخرة، وذات يوم.. كانت عربتنا الضخمة "ستوديو بيكـر" تنهب الأرض، مكتظة بالجرحى الذين تصاعدت أصـواتهم بأناتهم وهم يرجون السائق أن يسير ببطء. وكـان السـائق نيكولاى إيجرينيف من نفس عمرى. حاول أن يقود السـيارة بسرعة مناسبة ومعقولة، ذلك أن المبالغة فى التمهل كانـت مستحيلة، لأن قواتنا كانت تنسحب وقتها ونحن معها. المهـم

أننا مضينا نقترب من مفارق طرق، ورأينا على بعد أمامنا، عربة صغيرة واقفة وإلى جوارها ضابط يلوح بيديـه وهـو يصيح:

ـ قف.. أقول لك قف..

وكان قد صدر لنا أمر صارم: لا تتوقفوا، ولو طلب ذلك الشيطان ذو القرنين شخصياً. كانوا على حق.. ما يزال كثير من الأحباء يرقدون هناك.. قل لو كان جيشاً فى حالـة هجوم لهان الأمر.. أما ونحن ننسحب؟ المهم مررنـا قـرب العربة الصغيرة مواصلين طريقنا. لكن العربـة الصـغيرة انطلقت تلاحقنا حتى تقدمتنا، وخرج منها الضابط ووقف فى منتصف الطريق ومسدسه فى يده. لم يكن بوسعنا أن نقـوم بشىء، فتوقفنا. اتضح أن ثمة ضابطاً جريحـاً يجلـس فـى العربة الصغيرة، وأرادوا أن ينقلوه لإسعافه ولم يكـن فـى استطاعة الضابط صاحب المسدس أن يوصله هو، لأن عليه أن يسلك الطريق المعاكسة. استطعنا بطريقة مـا أن نحشـر الجريح فى جوف عربتنا المكتظ بمعاونة الضابط الآخر. فى ذلك الوقت كان نيكولاى السائق يجلس فى كابينة القيادة إلى جوار نقيب جريح جلس شبه راقد، وكان نيكولاى المسـكين

يمسك بعجلة القيادة بيد، ويسند النقيب الجريح بالأخرى. أما الشخص الذى ساعدناه على صعود سيارتنا، فكان مسـكيناً، وكان من الواضح أنه لم تبق أمامـه إلا سـاعات معـدودة يقضيها فى هذه الدنيا. كان رأسه غارقاً فى دم جاف. شـاب صغير، برتبة ملازم. لعله بدأ يحلق ذقنه من زمـن بسـيط. حملت رأسه، ووضعتها على ركبتى، قلـت لعلنـى بـذلك أساعده.. لكن تساعد من؟

وصلنا إلى المستشفى العسكرى، وهناك شرعنا فـى إخراج الجرحى من السيارة..

سعل جدى، وصمت. أشعل سيجارة وواصل:

ـ جعل نيكولاى يساعدنى فى إخـراج الجرحـى، ناولته الملازم، وقلت له: " هذا الشـاب انتهـى.. خـلاص" فتطلع نيكولاى إلى وجه الملازم.. هيه..

أطبق الصمت مرة أخرى. سكتا طويلاً.

سأل نيتشاى بصوت خافت:

ـ ترى أكان الملازم هو ابن نيكولاى حقاً؟

أجاب جدى:

ـ نعم ابنه.

ـ يا إلهى!

ـ هووف..

تمخط جدى، وأخذ يسحب أنفاساً من سيجارته عـدة مرات متعاقبة.

ـ وماذا حدث بعد ذلك؟

ـ دفناه.. وأعطى رئيس الكتيبـة إجـازة أسـبوع لنيكولاى الذى سافر إلى قريته. هناك.. لم يخبر زوجتـه أن ابنها مات. أكثر من هذا أخفى نيكولاى كل الوثـائق التـى تخص ابنه حتى الوسام الذى منحوه له، ومكث فـى القريـة أسبوعاً ثم رحل.

ـ ولماذا لم يخبرها؟

ـ يخبرها؟! هكذا على الأقل سيظل لديها أمل.. أما لو قال لها لانتهى بذلك كل شىء. لم يستطع أن يقول لهـا. عدة مرات شاء أن يكلمها. ولكنه لم يستطع.

تنهد نيتشاى مرة أخرى:

ـ يا إلهى.. يا إلهى.. وهل ظل نيكولاى على قيـد الحياة؟

ـ نيكولاى؟ لا أعرف.. فرقتنا الحرب، ووزعتنا فى أماكن مختلفة.. هذه هى القصة. ابن الإنسان! هل هذا هين؟ وخاصة إذا كان شاباً صغيراً؟!

لزم العجوزان الصمت.

كان ضوء القمر المهيب، الساكن، ينسكب، وينسكب فى الشبابيك. كان القمر منيراً! وسيان أفرحة كانـت علـى الأرض أم فاجعة.. يظل القمر مضيئاً.

هواجس

هكذا كل ليلة.. لا تكاد القرية تهدأ قليلاً ويتأهب الناس للنعاس حتى يشرع هذا اللعين فى الحركة، يقبل من أطراف القرية يدنو، ويدنو وهو يعزف على أوكورديون من نوع خاص، لا يصدح، لكن يولول.

وقد نصحوا نينا كريتشينوفا:

- تزوجى منه بسرعة. يا للشيطان.. إنه لا يدعنا نحيا فى هدوء!

وابتسمت نينا بسمة ملغزة:

- ناموا ولا تنصتوا إليه.

- عن أى نوم تتحدثين وهو يمط الأوكورديون تحت الشبابيك مباشرة؟ ويا ليت شيطانك العاشق كان يذهب إلى ناحية النهر، لكنه لا يفعل.. وإنما يتفنن هنا.. كأنما يتعمد ذلك.

أما كولكا مالاشكين، الضخم، غليظ الشفتين، فقد قال ونظرة وقحة تطل من عينيه الصغيرتين:

ـ هذا حقى، ليس فى القـانون بنـد يعاقـب علـى العزف.

فى هذا المكان بالتحديد، حيث خرج كولكا من الزقاق منعطفاً إلى الشارع، قام البيت الـذى يسـكن فيـه مـاتفى رزانتسيف، رئيس المزرعة التعاونية فى القرية.

وهكذا، كان يرتفع عويل الأوكورديون فى الزقـاق ويمضى فيلتف حول البيت ويظل مسموعاً فترة طويلة.

وقد اعتاد ماتفى ـ بمجرد أن يرن الأوكورديون فى الزقاق ـ أن يجلس على سريره ويمد سـاقيه إلـى الأرض قائلاً:

ـ بس. غداً سأرفته من الكلخوز، سأتمحك فـى أى سبب وأرفته.

كان ماتفى يكرر هذه الكلمات كل ليلة، لكنه لم يرفت كولكا أبداً. فقط كان يسأله إذا التقى به فى النهار:

ـ هل ستظل طويلاً تتسكع بالليل؟ الناس يلتمسـون الراحة بعد عمل طوال النهار، لكنك توقظهم كأنـك قـارع ناقوس فى كنيسة؟

ويرد كولكا كعادته:

ـ هذا حقى!

ـ طيب.. سأريك حقك هذا.. سأجده لك.

عند هذا الحد كان الحوار ينتهى بينهما. ويعود ماتفى ليقسم كل ليلة وهو جالس على سـريره: "غـداً سـأرفته". ويجلس مدة سارحاً مع أفكاره. وحتى بعد أن يغيب صـوت الأوكورديون بعيداً فى الشارع ويصبح غير مسـموع يظـل ماتفى جالساً فترة، ثم يمد يده إلى جيب سرواله الملقى علـى الكرسى، يتحسسه حتى يعثر على علبة سـجائره فيخرجهـا ويشعل لنفسه سيجارة. وتتمتم آلينا زوجته متذمرة: "كفاك هذا القطران"، فيرد عليها باقتضاب: "نامى..". وتسرح أفكـاره.. فتتراءى له صور غائمة متناثرة من حياته لا يربطها شىء.

وذات ليلة من تلك الليالى التى أضاءها القمـر، رن صوت الأوكورديون، وانسكبت عبر النافذة المفتوحـة مـع النسيم العليل رائحة نبات الشيح المرة المنبعثة من البسـتان. وتجسدت أمام ماتفى بوضوح ذكرى ليلة سوداء من حياتـه الماضية..

يذكر كان مع أخيـه الأصـغر "كوزمـا" بصـحبة والدهما، وتوجهوا معاً لجمع المحصول بعيداً عـن قـريتهم بخمسة عشر كيلو متراً. فى تلك الليلة تحشرج صوت كوزما أول الأمر، فقد عب من مياه النبع الباردة بالنهار فـى عـز الحر وكان العرق يغطيه. وعند حلول الليل انسدت حنجرتـه تماماً. يتذكر ماتفى أن أباه أيقظه وطلب منه أن يقفش أسرع الخيول المسمى "إيجرنكو"، ويدفعه للانطلاق بأقصى سـرعة على الطريق إلى قريتهم ليجلب كميـة مـن اللـبن لأخيـه الأصغر.

قال له أبوه:

ـ سأضرم النار فى الحطب حتى تعود باللبن فنغليه. لابد أن نسقى أخاك لبناً ساخناً وإلا مات بين أيدينا.

انطلق ماتفى، وجعل يرهف السمع حتى خمن المكان الذى يرعى فيه الحصان، وهناك تمكن من تلجيمه ثم انهـال على جانبيه بسوط من شعر مجدول يستحثه على بلوغ القرية بأقصى سرعة.

حينذاك لم يكن ماتفى قد تجاوز الثانيـة عشـرة، أو

الثالثة عشرة، وعلى الرغم من أنه سيبلغ الستين عما قريب، فإن تلك الليلة مازالت حية فى ذاكرته.

اندغم ماتفى فى الحصان وصارا كتلة واحدة طـائرة فى ليل أسود اندفع نحوهما، وراحـت رائحـة كثيفـة مـن الأعشاب الرطبة تضرب وجهيهما بشدة. واندفع الدم يطـن فى رأس ماتفى، واستولت عليه نشوة وحشية.. ما أقرب ذلك إلى التحليق! وشعر الصبى كأنه انفصل عن الأرض، وعـلا طائراً، لا يرى شيئاً من حوله.. فلا أرض.. ولا سماء.. ولا حتى رأس الحصان، كان الطنين يدوى مـلء أذنيـه، وقـد تزحزح راكضاً للقائه عالم الليل المهول. ولم يرد إلى عقله إطلاقاً فى تلك اللحظة أن أخاه كوزما يرقد مريضاً هناك، بل وما عنت له أية فكرة أخرى. لقد اتقدت الفرحة العارمة فـى روحه وانتفض كل عصب مبتهجاً فى جسده.. يـا لـه مـن ومض عزيز لشعور لا يتكرر وسعادة فوق الاحتمال.

بعد ذلك حلت الكارثة، حين عاد باللبن إلـى أبيـه، فوجده يهرول حول شعلة النار وقد ضم أخاه إلى صدره وهو يتمتم مهدهداً: "يا ابنى.. ما بك؟ تحمل قليلاً، شـوية بـس، سنغلى لك اللبن فتتنفس، يا ابنى يا حبيبى.. ها هو ماتفى قد

جاء باللبن".. لكن كوزما الصغير كان أزرق، مختنقاً. وبعـد وصول ماتفى بقليل جاءت أمه، لكن كوزما كان قد مات.

جلس أبوه جاعلاً رأسه بين يديه، مطوحـاً نصـفه الأعلى وهو يئن بصوت خافت مديد.

وحطت على ماتفى دهشة وفضـول وهـو يتفـرس مستغرباً فى أخيه الذى كان حتى الأمس فقط يلعب معه فوق الدريس.. إنه يرقد الآن أمامه جسداً غريباً لا يكاد يتعـرف إليه. جسد أبيض تشوبه الزرقة.

لكن.. كيف بعث الأوكورديون اللعين فى ذاكرته تلك الليلة، وكل ما جرى فيها؟ ما أعجب هذا.. ألم تمتد بعد ذلك الحادث حياة طويلة حافلة؟ عرس الزواج، تعمـيم المـزارع التعاونية فى الريف، الحرب، وغير ذلك من الليالى التـى لا تنسى؟ كل هذا يبدو وكأنه بهت، وامحى من الذاكرة.

طوال حياته تلك نهض ماتفى بأعبائه التى كان عليه أن ينهض بها، حين قالوا له لابد من الذهاب والعمـل فـى المزرعة التعاونية، ذهب. وحين حانت السن التى يتزوج فيها الناس عادة، تزوج من "آليونا" وأنجبت له الأطفـال الـذين

كبروا. وحين وقعت الحرب، مضى ليحارب. وحين رجـع إلى قريته بسبب جراحه قبل عودة الجنود الآخرين، قالوا له: "ماتفى.. كن رئيس المزرعة.. ليس هناك سواك"، فأصـبح رئيس المزرعة، ومثلما انخرط فى عمله معتاداً عليه، ألـف الناس وجوده. منذ ذلك اليوم وهو يشتغل بهذا العمل الرتيب، العمل، العمل، العمل. لم يكترث طيلة حياته إلا بـه، حتـى سنوات الحرب انقضت هى الأخرى فى العمل. وكان العمل محور مشاغله كلها، وأفراحه وأحزانه، حتى أنه حين سـمع كلمة "الحب" تتردد من حوله، لم يدرك ما هو المقصود بتلك الكلمة على وجه الدقة. بالطبع كان يعلم أن "الحب" عاطفـة موجودة فى هذه الدنيا، بل ومن غير المستبعد أن هذا "الحب" هو ما أحسه نحو آليونا زوجته التى كانت جميلة للغاية فـى شبابها.

لا.. لا يدعى ماتفى أنه يعرف شيئاً ـ أكثر من ذلك ـ عن "الحب"، بل إنه يظن أن الآخرين يتظاهرون، لا أكثر، بالحب، فيغنون أغانيه، ويصطنعون الشقاء. الأغرب من ذلك أنهم حسب ما سمع ينتحرون.لعلهم لا يتظاهرون وإنما هـى عادة ألفوها أو شىء من هذا القبيل؟ لابـد أن نـتكلم عـن

الحب.. طيب.. فلنتكلم عن هذا، بينما المشكلة الحقيقيـة أن الناس لابد أن يتزوجوا. وترى هل كولكا عاشق حقاً؟ لا شك أن نينا تعجبه فهى بنت عفية ومكتنزة الجسم، لكنه من ناحية أخرى فى سن الزواج، ولذلك يتسكع هذا الأحمق ويعـزف الأغانى بالليل. ولم لا يذرع الشوارع بالليل؟ أليس شاباً يحس بالقوة تتأجج فى روحه؟ هذه حال الدنيا. الحمـد لله أنهـم لا يتضاربون بالأيادى بسبب البنات. كان الشبان يفعلون ذلـك فيما مضى. ماتفى نفسه تشاجر عـدة مـرات، كـان قويـاً والرغبة فى العراك تسرى فى قبضتيه.. طاقـة لابـد مـن تصريفها.

أثقلت على ماتفى خواطره تلك، فأخذ وهـو جـالس على السرير يهز زوجته النائمة من كتفها:

ـ آليونا.. أتسمعين؟ اسـتيقظى.. أريـد أن أسـألك سؤالاً..

اندهشت آليونا:

ـ ما بك؟

ـ هل وقعت يوماً فى الحب؟ حبى أو حـب رجـل آخر.. أى رجل؟

ظلت أمارات الدهشة تعلو وجه آليونا فتـرة وهـى راقدة، ثم قالت له:

ـ أنت سكران يا رجل؟ ماذا جرى لك؟

ـ إنى أسألك، هل شعرت نحوى بالحب فتزوجتنى، أم تزوجت لأنه لابد من الزواج؟ إنى أسألك جاداً!

حينذاك، أدركت آليونـا أن زوجهـا مـاتفى لـيس مخموراً، وعلى الرغم من ذلك التزمت الصمت مرة أخرى، لأنها لم تدر ماذا تقول له؟ لقد نسيت. صاحت به:

ـ من أين تسللت إلى رأسك هذه الأفكار؟

ـ شىء واحد أردت أن أفهمه، لعنة الله عليه، شىء يجثم على قلبى، ويقلقنى، لا أدرى لماذا، كأنه مرض.

قالت آليونا محاولة إقناعه:

ـ طبعاً أحببتك! لو أنى لم أحبك ما تزوجت منـك. ألم يلهث ورائى حينذاك كارلوف؟ لكنى لم أتزوجه. ثم قل لى

ما الذى جعلك تتذكر الحب وسط الليل؟ هل بدأت تخرف؟

اغتم ماتفى:

ـ نامى، الأحسن أن تنامى.. ربنا يأخذك!

ـ نسيت أن أقول لك.. سرح البقرة لترعـى غـداً، لأنى اتفقت مع النسوة أن نمشى قبل أن تنور الـدنيا لنجمـع الثمار.

انتبه ماتفى:

ـ أين؟

ـ لا تفزع، لن نذهب إلى بساتين الحكومة.

ـ لو ضبطتُ واحدة منكن هناك سـأغرمها عشـرة روبلات.

ـ نحن نعرف مكاناً لم يبدأ فيه الحصاد بعد، والثمار هناك حمراء غاية الاحمرار.. المهـم لا تـنس أن تسـرح البقرة.

ـ طيب.

ولكن.. ما الذى جرى فى تلك الليلة حين ذهب فـى

طاب اللبن لأخيه "كوزما"؟ ما الشىء الذى يجعل تلك الليلـة تمسك بخناقه وتلح بذكراها عليه؟ لعلنى أختبل، فالناس حين يشيخون يخرفون. وحزن ماتفى لذلك الخاطر.

ولم يهدأ ألم المرارة التى تخللت روحه. وانتبه ماتفى إلى أنه ينتظر مرور كولكا، ويترقب سماع آلته الشجية، وأنه كلما انقضى الوقت دون مرور كولكا تضاعف قلقه، حتى أنه امتلأ بالحنق على نينا واغتاظ منها "هـل مـن المعقـول أن تتركه هذه الفحلة العفية ينصرف بسرعة؟".

ظل جالساً يدخن ينتظـر مـرور كولكـا وصـوت الأوكورديون الشجى.

ها هو الصوت يرن من بعيد فى الزقاق، فيتصـاعد الألم فى قلب ماتفى، لكنه فى هذه المرة ألم من نوع آخـر، عذب وعجيب، يشعر الإنسان بدونه أن شيئاً ينقصه.

وتراءت له من ذكرياته أصباح أيام أخـرى: وهـو يمشى حافياً على أعشاب ندية يطأها بقدميه فتحمل أثرهمـا، أعشاب خضراء، شديدة الخضرة، يخز باطن قدميه منها برد الندى، بل إنه ما كاد يتذكر ذلك حتى أحس البـرد يسـرى

فيهما.

وخطرت له فكرة الموت فجأة. "قريباً تحل النهايـة"، طرأت له الفكرة من دون رعب أو ألم، مصحوبة بالدهشـة وحدها "سيحملونك إلى القبر، ويوارونك التراب"، هذا واضح ومفهوم. وسيظل كل شىء على ما هو عليه؟ هذا هـو مـا يصعب على الفهم! كيف سيظل كل شىء على ما هو عليه؟ طيب نفترض أن الشمس ستظل تشرق وتغرب كل يوم، هذا مفهوم وهى حالها منذ الأبد، لكن الناس؟ بشر جدد سيعيشون فى القرية، بشر لن تتعرف إليهم أبداً، هل يعقل هـذا؟! لا.. إنه أمر يستعصى على الفهم. سيظل أهل القرية يتـذكرونك عشرة أعوام، قل خمسة عشر عاماً، يتذكرونك ويرددون أن رجلاً اسمه ماتفى كان يعيش هنا، ثم ماذا؟ سيحل يوم تنفض فيه هذه السيرة. كم وددت لو أعرف أى إنـاس سـيظهرون ويعيشون هنا. لا.. ليس هناك ما اتأسف عليه، شـبعتُ مـن التطلع إلى الشمس بما فيه الكفاية، وتنزهت فى الأعياد فـى حدود المعقول، بل وعشت بعض الأوقات المفرحة. لا.. ليس هناك ما اتأسف عليه، لقد رأيتُ الكثير فى هذه الدنيا، لكن ما أكاد أفكر فى أنى لن أصبح موجوداً، وأن آخرين سيواصلون

الحياة بينما أكف أنا عن الوجود؟ تـرى.. هـل سيحسـون بالفراغ من بعدى؟ أم ستمشى الحال؟ تفو! لابد أننى أخرف. لقد تعبت من هذه الأفكار والهواجس.

أيقظ زوجته:

ـ آليونا.. أتسمعين؟ آليونا.. أفيقى يا امـرأة. هـل تخافين الموت؟

صاحت متذمرة:

ـ هل جننت يا رجل؟ من الذى لا يهـاب المـوت حصاد البشر؟

ـ أنا. أنا لا أخشى الموت.

ـ نم إذن. لماذا تفكر فى الموت؟ نـم إذن ودعنـى أسترح.

عاودته مرة أخرى ذكـرى تلـك الليلـة السـوداء الصماء، وهو طائر على الحصان فشعر بـالقلق والعذوبـة يعتصران قلبه. لا.. مع ذلك ثمة شىء فى هذه الحياة، شىء يأسف الإنسان عليه، بلا حدود، وحتى البكاء.

* * *

فى ليلة أخرى، نفد صبر ماتفى بعد طـول انتظـار أوكورديون كولكا. جلس وشرع يدخن. ومـن جديـد طـال انتظاره وترقبه دون أن يرن صوت الأوكورديون الشـجى. ولم يطق ماتفى ذلك الانتظار الممض وتكدر مزاجـه إلـى أقصى درجة. وحين انتشر نور الفجر أيقظ مـاتفى زوجتـه وسألها:

ـ ماذا جرى لقارع النواقيس؟ لا حس ولا صوت؟

ـ كولكا؟ لقد بدأ اجراءات الزواج.. والعرس يـوم الأحد القادم.

غمرت الكآبة ماتفى. ورقد معتزماً النوم، لكنـه لـم يتمكن. ظل يطرف بعينيه فى السرير حتى فاض الضوء فى الحجرة. ود لو يتذكر شيئاً من حياته، لكن شيئاً لم يرد إلـى عقله على الإطلاق، بل انثالـت إليـه مشـاغل المزرعـة التعاونية: يقترب موسم الحصاد فى حـين أن نصـف آلات الحصاد والأجزاء الملتوية من العربات مركونة على حالهـا عند الحداد الأحول "فيليا"، و "فيليا" لا هـم لـه إلا التنـزه.. والآن، وعرس كولكا قادم، فإن الحداد سيعب الخمر طـويلاً

حتى يرتوى فى ذلك العرس. أى يمكن أن نقول إن أسـبوعاً آخر بأكمله سيضيع. لا.. لابد من الكلام مـع "فيليـا" بهـذا الصدد.

* * *

فى اليوم التالى التقى ماتفى بكولكا غلـيظ الشـفتين، فابتسم ماتفى بسخرية قائلاً له:

ـ إيه يا أخانا.. هل شبعت من العزف ليلاً؟

انفرجت شفتا كولكا عن بسمة عريضة وصلت مـا بين أذنيه وقال:

ـ خلاص يا ماتفى إيفانوفيتش. لن أوقظك بعد ذلك فى الليل. رسوت بمركبى.

قال ماتفى:

ـ طيب.. طيب.

وانصرف ماتفى إلى أعماله وهو يقول لنفسه: "ولماذا أنت سعيد هكذا؟ أيها الثور، من الآن فصاعداً ستمسك بـك نينا من قرنيك. هكذا هن النسوة".

ومر أسبوع بعد ذلك.

لم يكف ضوء القمر السيال عن الانسكاب فى النوافذ ليلاً، وفاحت بحدة من البستان رائحة الشيح وأوراق حبـات البطاطس النامية.. وعم الهدوء المكان.

نام ماتفى نوماً مضطرباً، ثم صحا وراح يدخن. أخذ يتمشى أمام مدخل البيت. وشرب كوباً من سائل "الكفاس"، ثم جلس على عتبة السلم تحت سقيفة البيت. وشرع مرة أخرى يدخن سيجارة. وكانت القرية منيرة بينمـا سـادها صـمت مرعب.

غليون الجندى

تأليف : ايليا إيرنبورج

ترجمة عن الروسية : د . أحمد الخميسي

يظل ضوء النجمة الهادىء سارياً ألوف السنين قبـل أن يبين للبشر، لكن عمر الإنسان قصير: طفولة ولعب، حب وعمل، مرض ثم موت.

اشتعلت حرب، سيتخيرون لها فى وقت مـا صـفة "كبرى" أو "صغرى"، حتى يسـهل تمييزهـا بسـرعة مـن الحروب السابقة، والأخرى اللاحقة. أما الذين عاشـوا ذلـك العام فقد عدوها "حربا" فحسب.

وقعت الحرب، وقرب أكوام الحجارة، التـى كانـت مسماة فيما مضى: مدينة ايبرو البلجيكية، انبسـطت قطعـة أرض صغيرة المساحة، جلس عليها، وأكل، ومـات، إنـاس غرباء وافدون من بعيد، أطلقوا عليهم اسم: "كتيبة خط الطول ١١٨ التابعة للجيش الفرنسى". وكانت تلك الكتيبة مؤلفة من

الفلاحين وصناع النبيذ والرعاة فى قرية "بروفانس" بجنـوب فرنسا. وطوال ستة أشهر كاملة، أكل أولئـك النـاس (ذوو الوجوه السمر والشعور المجعدة) فى الحفر الطينيـة، نـاموا فيها، أطلقوا النيران، ماتوا وأياديهم تنتفض إلى أعلى.

وهناك فى هيئة الأركان، رسموا فوق الخارطة، عند مواقع "المعبر الأسود"، علامة تحدد أن كتيبة خـط الطـول ١١٨ تحمى المواقع هناك.

وعلى بعد خمسمائة خطوة جلـس إنـاس آخـرون، تحدثوا بلغات مختلفة، وأطلقوا هم أيضـاً النيـران، وبـدوا أضخم وأشد فظاظة وأميل إلى البياض زرق العيون، وكـان السمر ذوو الشعور المجعدة قلة بينهم. هؤلاء كانوا مزارعين من "بوميران" بألمانيا، أطلقت عليهم هيئـة الأركـان اسـم: "كتيبة الاحتياط ٨٧ التابعة للجيش البروسى".

كانت الكتيبتان عدوتين، تفصل بينهما قطعـة أرض، قال عنها صناع النبيذ والمزارعون إنها "بلا صاحب"، قطعة أرض لم تكن تابعـة للمملكـة البلجيكيـة، ولا للجمهوريـة الفرنسية، ولا للامبراطورية الألمانية. قطعة أرض أحرقتهـا القنابل، وأكلتها بالطول وبالعرض الخنادق المهجورة الممتلئة

حتى حافتها بعظام البشر والمعادن الصدئة. هكذا، كانت تلك الأرض هالكة، و"بلا صاحب"، لم تسلم فيها عشبة واحـدة، فاحت كلها (فى منتصف يوليه) بعطن الدم، والبراز. ومـع ذلك، فإن البشر أبداً لم يتقاتلوا للاستيلاء علـى أى بسـتان مبارك، نضير الثمار مورق النبات، كما تقـاتلوا للاسـتيلاء على قطعة الأرض الخاوية تلك، والمشتهاة. ففى كل يـوم، كان يزحف إنسان ما، من الأراضى الفرنسية أو الألمانيـة، إلى المكان الذى يقال إنه "بلا صاحب"، يزحف وهو يمـزج الطين بخيوط من الدماء.

قال البعض إن فرنسا تخوض الحـرب مـن أجـل الحرية، وقال البعض الآخر إنها تسعى لنهب الحديد والفحم. أما "بيير ديبوا"، جندى كتيبة خط الطول ١١٨، فقد حارب لا لشىء، إلا لأن الحرب قد اندلعت. قبل ذلك، اشـتغل "بييـر ديبوا" بزراعة العنب، وحين كان المطر يسح طـوال أيـام متتالية، أو تهاجم حشرة "فيلوكشر" الكروم، كان "بيير ديبوا" يقطب وجهه، ويسوط كلبه حتى لا ينوش العنب. وفى السنة الندية، كان يبيع الأعناب بثمن مـربح، ويرتـدى صـدارته المنشاة، ويمضى إلى أقرب بلدة. وهناك يلهو كيفمـا يمكنـه

اللهو فى حانة "ملتقى الأمراء": يخبط الجرسونة على ظهرها العريض ويلقى فى ثقب مكنة الموسيقى قطعتى "سـو"، ثـم يستمع إلى الألحان المنتخبة فاغراً فاه. ولم يمرض "بيير" إلا مرة واحدة، حين ظهر له دمل فى أذنه، وكان موجعاً للغاية. وفى صغره، كان مغرماً بامتطاء ظهر الماعز، وسرقة التين المجفف أينما خبأته أمه. وكانت له زوجة هى "'انا"، يضغط بعشق أغلب الوقت نهديها المتماسكين كعنقودى عنب.

هكذا، مضت حياة "بيير ديبـوا"، إلـى أن خاضـت فرنسا الحرب، دفاعاً عن الحرية، أو لنهب الفحـم، فصـار "بيير ديبوا" جندياً فى كتيبة خط الطول ١١٨ التابعة للجـيش الفرنسى.

فى مواجهة "بيير ديبوا"، وعلى بعد خمسمائة خطوة منه، جلس "بيوتر ديباو". ولم تكن حياة "بيوتر ديباو" تشبه فى شىء حياة "بيير ديبوا"، مثلما لا تشبه البطـاطس الأعنـاب، ومثلما لا يشبه الشمال الجنوب. ولكنها كانت فى نفس الوقت تشابهها من دون حد، مثلما تشبه كل ثمار الأرض بعضـها البعض، وكل البلدان، وكل الحيوات بعضها البعض.

لم يذق "بيوتر" العنب طيلة عمره، كان يرمقه فقـط

وهو معروض خلف زجاج المحـلات. ولـم يكـن مغرمـاً بالموسيقى، لكنه كان يشارك الآخرين لعبة السبعة أوتاد فـى أيام الأعياد، وكان يتجهم حينما تحمو الشمس وينعدم المطر، لأن العشب يصفر فى ذلك الوقت، وتدر الأبقار لبناً فاسداً. لم تمرض أذناه أبداً، فقط توعك ذات يوم، فرقد أسبوعاً طـريح الفراش وهو يعانى من سخونة شديدة. وكان، فـى صـباه، يلعب مع كلبه الهرم "تاكسا"، ويتصيد بقبعته البقع الشمسـية داخل الغرف. وكانت زوجته "يوهانا" بيضاء مثل اللبن، لينة كالبطاطس المسلوقة، وكان مفتوناً بذلك.

عاش "بيوتر" على هذا النحو، إلى أن قال البعض إن ألمانيا بدأت تقاتل فى سبيل الحرية، وقال البعض الآخر إنها تريد الاستيلاء على الحديد والفحم، فصار "بيوتر" جندياً فـى كتيبة الاحتياط ٨٧.

ولم تكن هناك حرية فى قطعة الأرض التـى "بـلا صاحب"، ولم يكن هناك فحم، لم يكن هناك سـوى عظـام البشر، والأسلاك الصدئة. ولكن النـاس أرادوا أن يظفـروا بقطعة الأرض تلك، مهما كلفهم ذلك.

وقد أمعنت هيئة الأركان التفكير فى ذلـك الهـدف،

وأدرجته فى المستندات والوثائق، وقام أحد الضباط، فى ٢٤ أبريل ١٩١٦، باستدعاء الجندى "بيير ديبـوا" إلـى مكتبـه وهناك أصدر إليه أمراً بالزحف فى الثانيـة بعـد منتصـف الليل، عبر الخندق المهجور المسمى "ممـر العـواء" حتـى مواقع القوات الألمانية، لكى يستكشف بدقة أمـاكن تمركـز القوات المعادية.

لم يتجاوز "بيير ديبوا" الثامنة والعشرين من عمـره، وهذا بالطبع عمر قصير للغاية إذا قسناه بنور النجمة الساكن الذى يسرى بضع مئات من السنوات.

أنصت "بيير" إلى أمر الضابط، لكـن عقلـه كـان منشغلاً بالتفكير فى خاطر آخر: "حشـرة "فيلوكشـر" تبيـد الأعناب، والمرض يفنى الإنسان، والآن.. الحـرب. وإذن، لابد من حساب عمر الإنسـان بالسـاعات، لا بالسـنوات. وهكذا، مازالت أمامه ثلاث ساعات وخمس عشرة دقيقة حتى ميعاد تنفيذ الأمر".

وأسعفه الوقت فحاك زرأ كان قـد سـقط، وكتـب لزوجته "'انا" يوصيها برش الكيماويات على الكروم التى لم تنضج، وارتشف بصوت مرتفع قدحاً مـن القهـوة المـرة

السوداء.

فى الثانية بعد منتصف الليل، شرع "بيير" يزحف على الطين الأملس لكى يستولى على الأرض التى "بلا صاحب". واستغرق "بيير" مدة طويلة وهو يمر فى الخندق المسمى "ممر العواء"، مرتطماً بعظام البشر والأسلاك الشائكة، حتى بلغ نهاية الممر. هناك، بانت له فى الجهة اليمنى، واليسرى، خنادق أخرى، مهجورة ويتيمة مثل بيوت منبوذة.

وتروى "بيير" مفكراً "فى أى الاتجاهين" يمضى؟ ولكن.. ألا يقود كل من الاتجاهين إلى الموت؟ وقرر أن يلتقط أنفاسه. وهكذا، أشعل غليونه، غليون جنود الجيش، المتواضع، المتسخ من الطين.

كان الجو هادئاً تماماً. عادة يطلق الجنود بالنهار النيران مدوية، أما فى الليل فيقتلون بعضهم البعض من غير ضوضاء، حين ترسل القيادة المستكشفين من أمثال "بيير" فى مهمة ما، أو تنصب الكمائن المموهة.

ابتلع "بيير" دخان غليونه، وتطلع إلى السماء التى

رصعتها النجوم بكثافة. لم يزن "بيير"، لا ولم يخمـن، ولـم يقارن هذا الكون الواسع بقريته الصغيرة "بروفانس"، لكنـه فقط قال لنفسه: "لو يكون الآن ليل مثـل هـذا هنـاك فـى الجنوب، فيفيد العنب، ويبهج قلب "’انا" فهى تعشق الليـالى الدافئة.

كان يدخن راقداً، منتشياً بكل الدفء السـارى فـى جسمه، وبأنه مازال حياً فوق هذه الأرض الماحلة التى "بـلا صاحب"، يدخن ويتنفس، بل وفى وسعه أن يهز يده أو يحرك ساقه.

ولم يكد "بيير" يشعل غليونه من جديـد، حتـى لاح قبالته وجه إنسان ما من خلف الزاوية هناك. شخص يزحف نحوه. شخص كل ما فيه غريب: وجهـه وخوذتـه وأزرار معطفه. ذلك كان "بيوتر ديباو"، مجرد عدو لـ "بيير"، مثلما أن الحرب مجرد حرب.

ولم يكن "بيير" يدرى أن ضابطاً ألمانياً، قام فى نفس المساء، باستدعاء "بيوتر"، الذى رفأ هو الآخر معطفه، وكتب لـ "يوهانا" خطاباً يذكرها فيه بالاهتمام بالبقار العشـروات، ثم احتسى الشوربة وهو يتمطق. لم يكن "بيير" يعرف بكـل

ذلك، وسواء أعرف أم لا، وسواء أفهم أم لم يفهم، فقد اعتبر "بيير" أن "بيوتر" عدوه، هذا لأن الحرب قد نشبت هذه السنة لا أكثر، لذا قوس جسمه وتهيأ للوثـوب والاشـتباك حـين أبصره يزحف فى اتجاهه.

أيضا، مد "بيوتر" يديه الاثنتين، وجمع ساقيه، وقـدر أكبر قفزة يمكنه القيام بها، عندما شاهد عدوه قريباً منه إلـى درجة أنه سمع دقات القلب الآخر.. الغريب.

رقدا، كل فى مواجهة الآخر.

وتريث كل منهما، لم يشأ لا هذا، ولا ذاك أن يكـون البادئ بالقتال. وكانت يدا كل منهما على مرمى بصر الآخر. لم يتطلع أحد منهما إلى وجه الآخر "عدوه" لكن كلا منهمـا حملق إلى اليدين العدوتين.

ظل غليون "بيير" مشتعلاً.

رقد العدوان قريبين من بعضهما البعض، زاهدين فى القتل، مدركين، على الرغم من ذلك، أن الاقتتـال حتمـى. استلقيا بهدوء، وتنفس كل منهما فى وجه الآخـر بصـوت مسموع، وتشمم كل منهما كوحشين رائحـة وبـرة أخيـه:

الغريبة، الأليفة والحميمة، رائحة المعطف المبلـل والعـرق الإنسانى، الطين والشوربة. قدما من أراض بعيدة إلى أراض غريبة، "بلا صاحب" وقد أدركا أنه "لابد من قتل العدو". لـم يحاولا أن يتكلما معاً، فما أكثر البلدان الغريبة، ومـا أكثـر اللغات الغريبة، فقط تمددا متجاورين فى سكون، وقد تصاعد بينهما دخان الغليون.

وقدر "بيوتر" أن أية حركة يقوم بها بيديه للتوصـل إلى غليونه، تنطوى على خطورة، لذلك اكتفـى باستنشـاق الدخان المتصاعد بنهم. حينذاك مد "بيير" رقبته ليـدنو مـن رأس "بيوتر"، فتناول "بيوتر" بأسنانه الغليون من فم "بييـر"، وعلى الرغم من ذلك فإن الأعين الأربع، لم تفلت من مجال رؤيتها، الأيادى الأربع الغريبة.

بعد أن سحب "بيوتر" عدة أنفاس من الغليون، أعاده إلى "بيير"، فشد منه نفساً ثم قدمه مرة ثانية إلى عـدوه دون طلب منه. تبادلا الغليون عدة مـرات، ودخنّـا باسـتمتاع. العدوان اللذان رقدا فوق قطعة أرض "بلا صاحب" ويجـب الاستيلاء عليها مهما تكلف ذلك. وكانا يبتلعان الدخان علـى مهل، وبحذر.. ببطء شديد للغايـة. وبينمـا يسـرى النـور

الهادىء ألوف السنين، كان هذا الغليون بالنسبة لواحد منهما آخر غليون يدخنه، وقد أدرك الاثنان ذلك. ووقعت الكارثـة حين كفت النار عن التواصل فى الغليون فانطفأ، لأن واحـداً منهما استغرق فى خاطر من خواطره فلم يطل بأنفاسه فـى اللحظة المناسبة عمر الغليون القصير. أهو "بيير" وهو يتذكر "'انا" السمراء؟ أم أنه كان "بيوتر" وهو يـودع فـى خيالـه "يوهانا" البيضاء؟ واحد منهما على أية حال. وأدركـا علـى الفور استحالة المخاطرة بإخراج القداحة، فأقل حركة باليدين تعنى التطاحن حتى الموت. وعلى الرغم مـن ذلـك، قـرر أحدهما أن يجازف.. وكان هو البادىء. أهو "بيير" الذى كان يدافع عن الجمهورية الفرنسية محتفظاً بقداحة ذات فتيل فـى جيبه الخلفى؟ أم "بيوتر" الذى احتفظ بعلبة ثقاب وهو يـدافع عن الامبراطورية الألمانية؟ واحد منهما على أية حال...

وأخذ كل منهما بخناق الآخر، وهوى الغليون غارقاً فى الوحل. قام كل منهما بخنق وضرب الآخر، فى صـمت، وهما يتمرغان على الأرض. وأخيـراً، أصـابهما الهـدوء، ورقدا فى وداعة متجاورين، لكن من دون الغليـون. رقـدا ميتين على أرض ماحلة "بلا صاحب".

وسرعان ما تلاشت الأضواء الهادئة التـى كانـت النجوم ترسلها إلى الأرض، وشع نور الفجر، وكما يحـدث كل يوم، ما أن شاهد الناس ـ الـذين يقتتلـون مـن غيـر ضوضاء ليلاً ـ أشعة الشمس، حتى أخذوا يقتتلون بصـوت عال، مطلقين نيران المدافع والبنادق.

ووصلت إلى هيئتى الأركان مذكرتان، تحويان اسمى جنديين مفقودين. وكان الاسمان متشابهين إلى أقصى درجة، ومختلفين إلى أقصى درجة. وتسلل، بليل نفس اليـوم، إلـى الأرض التى "بلا صاحب"، إناس آخرون، ليقوموا بمـا لـم يستطع "بيير"، و"بيوتر" القيام به، تسـللوا لا لشـىء إلا لأن الحرب نشبت فى ذلك العام.

بكت "'انا" السمراء "بيير" وهى ترش العنب الذى لم ينضج فى قرية "بروفانس"، بكت طويلاً، وفى هذا الوقـت، أدخلت إلى بيتها زوجاً آخر هو "بوليا"، هذا لأن شخصاً مـا لابد أن يشذب الكروم، وأن يضـغط نهـديها المتماسـكين كعنقودى عنب.

وبعيداً، فى قرية "بوميران"، بعيداً جداً عـن "'انـا"، ولكن أقرب بكثير مما بين نجمة وأخرى، هناك بكت "يوهانا"

البيضاء وهى تضع الطعام أمام البقار العشروات، ولأن البقر يحتاج لرعاية دائمة، ولأن جسمها الأبيض كالحليب لم يكـن ليستطيع الحياة بلا حنان، ظهر زوج جديد فى المزرعة هـو "باول".

فى أبريل ١٩١٧، كفت الأرض التى "بلا صاحب"، باعثة العطن من الدم والبراز، عن أن تكون "بلا صـاحب". حدث ذلك فى يوم دافىء، مشمس، حين مات فوقها بشر بلا عدد، من مختلف البلدان، وحينذاك صارت التربة الصـفراء المشبعة بالدم بالقانون ملكية خاصة لـ "صاحب" ما. ومشى الناس للمرة الأولى علـى أرض الخنـدق المسـمى "ممـر العواء"، مشوا هادئين، دون أن يحنوا رؤوسهم. وفى نهايـة الممر، عند المنحنى، حيث تتفـرع خنـادق أخـرى يمينـاً ويساراً، شاهدوا هيكلين متعانقين، وغليون صـغير بـالقرب منهما على الأرض.

ها هو أمام عينى، ذلك الغليون المتواضع وقد تلوث بالطين والدم، الغليون الذى صار زمـن الحـرب "غليـون السلام"، مازالت فيه بقية من رماد رصاصى: أثر من حياتين اشتعلتا أسرع مما تشتعل نتفة من تبغ.

لقاء عابر

فى أواخر الخريف كنت أمضى بسيارتى فى منطقة "فيليكا - لوكسكى" و"بسكوفسكى". تفرجت على عديـد مـن القرى الصغيرة الناهضة وسط الغابات، إلا أن قرية علقـت بذاكرتى على نحو خاص، إذ كان لها اسـم احتفـالى هـو: "الأجراس".

كانت تلك القرية تقع فوق رابية عالية، وتطل علـى بحيرة ساجية تبدو عميقة للغاية. راحت السماء تنطفىء بينما يقترب المساء، وأخذت نوافذ البيوت تعكس الغروب الأصفر الفاتر.

بلغت ـ مساء نفس اليوم ـ بلدة رحيبة هادئة هـى "ابتشكا"، فى منتصفها كان يهدر فواراً "النهر الكبير". نزلـت فى فندق "ابتشكا"، وفيه ساقنى الحظ إلى لقاء عابر وشـيق. كان واضحاً أن عملية ترميم للفندق قد انتهت لتوها، ذلك أن كل شىء، حتى المصابيح الكهربائية المدلاة مـن الأسـقف، كان ملطخاً ببقع الجير الأبيض.

عند مدخل الفندق - بعد ساعة من وصولى - التقيت برجل أشيب الرأس، قصير القامة يرتدى معطفاً رثاً، اتضح أنه كان على علم بوصولى، أوقفنى وسألنى:

- متى كانت آخر مرة دخلت فيها قاعة "الكونسرفتوار" الكبيرة؟

أوقعنى سؤاله فى حيرة، بالرغم من ذلك أجبته أننى منذ شهر حضرت فى تلك القاعة حفلة عازفة البيان سفيتا سلافا ريخترا.

قال العجوز:

- أصل المسألة أنى حاصل على شهادتى من "كونسرفتوار" موسكو - قسم التأليف - لذلك أرجوك حين تعود إلى موسكو أن تنحنى نيابة عنى لتلك القاعة الضخمة، ولآلة الأورغن الشهيرة. أنى أرجوك صادقاً أن تفعل هذا.

- هل انقضى زمن طويل منذ أن كنت فى موسكو؟

- سبع سنوات.

رد المؤلف العجوز وسألنى على الفور:

ـ هل اهتممت بأن تعرف كم "بيانو" وكم "رايال" فى هذه المنطقة "فيليكا ـ لوكسكى" أو "الريف" كمـا يطلقـون عليها؟ أتدرى كم عددها فى نوادى "الكلخـوزات" والمـدن الصغيرة مثل "ابتشكا" المباركة هذه؟

مرة أخرى ارتبكت وأجبته:

ـ أنى لم أهتم بذلك.

ـ هذا هو! شفت.

وأكمل المؤلف بمرارة:

ـ إن عددها قليل جداً.. إلى درجة فظيعة.

فى هذه اللحظة ولج المدخل رجل يرتـدى معطفـاً قصيراً مبطناً بالقطن تفوح منه رائحة بنزين نفاذة. مالت إلى الظن بأنه سائق. قال للمؤلف:

ـ يا والدنا.. فلنمض إلى المطعم نتغذى.. اليوم معى فلوس، فدعنا نذهب ونملأ معدتنا إلى آخرها.

ـ لا يا عزيزى، أشكرك، لا يمكننى بأية حال، فبعد ساعتين عندى حفلة فى مدرسة، سأعزف "تشايكوفسـكى" و

"شوستاكوفيتش".

التفت المؤلف نحوى:

ـ نعم.. سبع سنوات لم أر موسكو! ... قالها بتعجب وأمسك بى من كم معطفى ـ لكنى جبت الشمال كله فى هذه السنوات، والآن أطوف بـأقليم "فيليكـا ـ لوكسـكى" أقـيم الحفلات فى المدن والقرى الصغيرة. كان بوسعى أن أعيش فى موسكو، بل وربما حالفنى النجاح مثـل الكثيـرين مـن زملائى. لكنى إنسان وحيد والقليل يكفينى علـى حـد قـول الشاعر "وكسرة من خبزنا وقدح الحليب، وللسما من السحاب مئزر قشيب". هكذا كما ترى فضلت أن أتجول فـى المـدن والأطراف البعيدة أحيى الحفلات، مقابل بضعة قروش، لكن ليس هذا لب الموضوع.. أنت لا تتصور كيف يتوق النـاس إلى سماع الموسيقى وخاصة الشباب، ثم أى امتنان يحسـونه نحوك بعد ذلك، امتنان يدفعك إلى الاستمرار ولو كلفك هـذا أن تدور فى معطف رث.

عقب السائق قائلاً:

ـ الفلوس لا تفى بأجرة الانتقال فما بالك بمعطف؟

رد المؤلف باعتزاز:

ـ لم يحدث أن أحداً قام بتوصيلى من مكان إلى آخر مقابل فلوس، ثم أنى أعمل كعازف بيانو.. بالرغم من أنـى مؤلف، وهذا عدل.

استوضحته:

ـ كيف هذا؟

أجابنى:

ـ لأن جوهر الموضوع هو أن تحدد لنفسك بشـكل سليم، ما هو أرقى وأروع ما يمكنك أن تمنحه للناس.. هـل تفهم قصدى؟ فرق ضخم بين الأشياء الموسيقية التى أكتبهـا وأعمال "موتسارت" أو "تشايكوفسـكى"، "موسورسـكى" أو "شوستاكوفيتش"، لذلك أفضل عزف هذه الأعمال على تأليف مقطوعاتى، وبذلك أزيد من درجة نفعى للناس.

صاح السائق:

ـ تمام! أنا مثلاً سواق درجة ثالثة، فإذا قدت سيارة من نوع "زيس ١١٠" سأقطع قلبها!

قال المؤلف:

ـ زاخار إيفانوفيتش.. انتظر.. قل لى.. ما قيمتى أنا كمؤلف؟ قل لى.. أنا لست سوى نغمة بسيطة، نغمة يعوزها اللهب واندفاع المشاعر الجبارة إلى القمم، ثم ما هو المطلوب قبل كل شىء فى زماننا؟ المطلوب تربية المشاعر الإنسـانية الجليلة أولاً وقبل كل شىء، لذلك صرت عازف بيانو أجسد الموسيقى الخالدة. يقول أحد الشعراء: "ورق الأشجار حـين يجف ثم يهوى من سماء، فهو تبر ساطع أبداً فى الغناء". إنه شعاع خالد، ذلك الشعاع الذهبى الذى يلقى به الفن علينا، إنه يرفع من قدرنا دائماً. هذه هى المسألة يا عزيزى!

صمت المؤلف كأنما يرهف السمع إلى صوت نـاء، ثم قال:

ـ ربما كان كلامى مبهماً وغير واضـح.. لكنهـا العادة السيئة.. أحياناً تحتم على الظـروف ألا أكـون فقـط عازف بيانو، ولكن ضابط بيانو وأسـطى لمختلـف الأدوات الموسيقية.. منذ أيام حدث ما يلى: فى بلدة قريبة مـن هنـا اسمها "الأجراس".. نعم.. نعم.. بلدة رائعـة تشـرف علـى بحيرة.. المهم.. اتضح أن عندهم "رايال" ببيت إحدى معلمات

الريف، انتقل إليها عن امرأة عجوز، أمـا كيـف تصـادف وجوده عند العجوز، فذلك ما لم يعرفه أحد، والعجيـب أنـه كان بحالة جيدة، إلا أن ثمانية أصابع منه لم تكـن تعـزف، وكان على أن أصلحه بنفسى.. الحق أن إصلاحه اسـتغرق وقتاً طويلاً، استطعت فى نهايته أن أجعل صوته سـماوياً.. وفيما بعد، قاموا بنقله إلى نادى الكلخـوز.. هكـذا.. بهـذه الطريقة نعمل.

قال السائق للمؤلف:

ـ لكن يا ليونيد بتروفتش، لو ناقشنا الموضوع مـن الناحية العملية، سنجد أنك مثل طفل صغير.. كيـف تعـيش هكذا دون راحة وأنت رجل مسن؟

وعلق المؤلف:

ـ من الناحية العملية؟ كلا.. لا تحسب المسألة مـن هذه الناحية.

أردف المؤلف كلماته بإشارة من عينيه نحو المـرأة المنوبة بالطابق فى الفندق، وكانت ذات عينـين جـاحظتين قصيرتين، جلست ملوية الشفتين خلف حاجز خشبى تجـرى

بعض الحسابات مستخدمة الآلة الحاسبة.

اتبع المؤلف إشارة عينيه بقوله:

ـ تكاثر أمثال هذه المرأة ممن يحسبون الموضـوع من نواحيه العملية، تكاثروا مثل الحشرات فى الكرنب. وأنت أليس من الأفضل لو مضيت معى إلى الحفلة؟

أجاب السائق:

ـ سآتى دون شك. أنت حتى الآن يا ليونيد بتروفتش لم تقدم حفلة واحدة فى "ابتشكا" من دونى.

ودعنى المؤلف وخرج.

سألت المرأة المنوبة:

ـ من هو هذا الشخص؟

أجابتنى بخشونة:

ـ ماذا بك؟ ألا ترى؟ ـ هزت كتفيها وأضـافت ـ رجل يتسول بالموسيقى، وكل ما يتقنه هو مخالفـة قواعـد النظام الداخلى، فهو إما يغنى، وإما يصطحب معه صبياً من الحرفيين إلى الغرفة، ويبدأ فى تعليمه العزف على الجيتار..

هذا على حين أن نزلاء الفندق عادة من النـاس المحتـرمين الذين يسافرون لقضاء أعمالهم، أما هو فلابد من طرده بسبب أفعاله تلك.

عند حلول الليل هبت على "ابتشـكا" ريـح رماديـة معتمة، أخذت تسوق السحب وتجمعها، واندفع المطـر فـى هبات طائرة راشقاً بقطراته القوية زجاج النوافذ، غاسلاً عنها الجير الأبيض.

تمددت العتمة، كثيفة، بحيث لم تستطع أن تزحزحها تلك المصابيح الساطعة فى الشوارع المهجورة إلـى خـارج حدود القرية، هكذا ظلت العتمة راقدة فوق "ابتشـكا" حتـى بزوغ الفجر البارد المشبع بالندى.

استيقظت وسط الليل. كانت الـريح تعـوى وتهـز الأشجار العارية خلف الشباك فى الشارع. تأرجحت هوجـاء على الجدران فوق رأسى ظلال غصن باهتة. استلقيت على السرير وتذكرت المؤلف العجوز. لابد أنه يحس الوحدة فـى هذه القرية الغريبة وهذه الليالى اللعينة.

سمعت وقع خطوات خلف باب غرفتى، ثم حشـرجة

الصنبور النحاسى، تحمل ـ من المغسـل إلـى الردهـة ـ صوت طرطشة الماء، وصوت إنسان يغتسل وهـو يدنـدن بنصف صوته: "الموج يصرخ فى النهير الكسـيف.. إبكـى وولولى يا عواصف الخريف". وعلى الفـور أعقـب ذلـك صرير السلالم شديداً ثم دبيب أقدام شـخص فـى الردهـة، وتناهى إلى سمعى صوت المرأة المنوبـة بالطـابق نشـازاً ومزعجاً: "كف عن هذه الفضائح! أهذا ما توصـلت إليـه؟ الغناء فى أواخر الليالى؟".

وواتتها الإجابة فى وشوشة ذات صفير تحمل تهديداً مصطنع الحزم: "ديدمونة! هل أديت صـلاة الليـل أم لا؟". وغمغمت المرأة من دهشتها بشىء ما عـن قواعـد النظـام الداخلى، ثم انصرفت مهرولة. أما المؤلـف ـ وكنـت قـد تعرفت إلى صوته ـ فقد أطلق فى أعقابها ضحكة صـبيانية للغاية. وأغرقت بدورى فى الضـحك وأنـا فـى غرفتـى. وأدركت أنه ليس بوسع أى شخص من الأجـلاف، ولا أيـة ليالى دون مأوى، أن تعكر صفو القلب الطـاهر فـى ذلـك الرجل المرح.

فى الصباح سـافرت مـن "ابتشـكا" قاصـداً إلـى

"بسكوف". وفى طريقى، عرجت على جبال بوشكين حيـث قبر الشاعر.

كان المكان ـ كالعادة فى أواخر الخريف ـ خاليـاً يعمه الهدوء. ومن عند الرابية حيث القبر، تراءى لى الأفـق الشاحب وقد تعلقت به نهايات الخيوط الذهبية. لم أجد أحـداً قرب التمثال الأبيض البسيط الذى تحمل قاعدته اسم "الكسندر سيرجيفيتش بوشكين". فقط بعد مرور ساعة غشـى المكـان عدة رجال ونساء من الغجر، وكنت أرى مخيمهم منصـوباً قرب الجبال. أخذوا يفترشون الأرض حول القبر، ثم شرعوا بأصوات منخفضة يتبادلون الرأى حول شىء ما، وبصوت لا يكاد يسمع انخرطوا فى أغنية غجرية مديدة الأنغام وحزينة. امرأة واحدة فقط لم تشارك فى الغناء. كانت شابة، جلسـت على الأرض وقد اسدلت على كتفيها شالاً جميلاً من الحرير، وأخذت تعبث بأوراق الشجر الملقاة، وسرعان مـا انـتفض رأسها إلى أعلى وسحبت من بين شـعرها الفـاحم، زهـرة حمراء من الورق المقوى، ورمتها بين قدمى بوشكين، وافتر ثغرها عن بسمة كشفت أسنانها المتلألئة.

اتصلت الأغنية تنثـال بجـرس هـادىء ومكتـوم،

وومضت فى رأسى صورة المؤف العجوز فـى "ابتشـكا"، وأنارت فجأة فى وعيى، صلة ما، مبهمة، بين هـذه الأنغـام المديدة ودقات البيانو فى أبعد الأماكن، وفى أقصـى زوايـا الوطن، فى القرى مثل قريـة "الأجـراس"، و "جارياتشـى ستان"، و "كامنى جريفى".

صار الغجر ينهضون ويهبطون فـى الـريح علـى الدرج الحجرى النازل من عند رابية القبر إلى تحت، وكانت الغجرية الشابة آخر من ذهب. ظلت واقفة أمـام القبـر ثـم التفتت نحوى قائلة بصوت أبح:

ـ كنت أود يا عزيزى لو غنيت لك "دثرينى بالشال الأسود" لكنى لا استطيع.. حنجرتى تعذبنى بشدة.

قالتها واستدارت بنعومة ومنصـرفة فـى أعقـاب الغجر.

بقيت مكانى.

هكذا سرعان ما امحى يومى كبسمة عابرة داغماً كل ألوان الخريف فى لون واحد رمادى جهم دبت فيه هـواجس الثلج واعتام الأشتية وأشجار البتولا بلونهـا الفضـى وهـو

يسود، وضباب مديد.

لسبب ما خطرت ببالى كلمات المؤلف العجوز حين حدثنى عن الشعاع الذهبى الذى يلقيه الفن علينا.

مساهمة مشكورة

فى موسكو، لنقل فى شارع "مالتشانوفسكى" تعـيش فنانة "مسارح الامبراطورية" فيما مضى، تعيش وحيدة وقـد تجاوزت سن الشباب، معروقة، عظم وجنتيها عريض، وتقوم بتدريس فن الغناء للراغبين. وإليكم ما يحدث معها فى شهر ديسمبر من كل عام:

فى أحد أيام الآحاد، ولنفترض أنه صـباح جليـدى مشمس، يرن جرس شقتها فى الصالة. تصرخ الفنانـة مـن غرفة نومها بفزع فى الطاهية:

ـ آنيوشكا.. الجرس يدق.

تهرول الطاهية لتفتح الباب، ثم تتراجع إلى الخلـف قليلاً: إلى هذه الدرجة كان الضـيوف متـأنقين وبـاهرين، آنستان ارتدت كل منهما معطفاً من الفراء وقفـازاً أبـيض، يرافقهما طالب غندور تجمد من البرد فى معطفـه الخفيـف وحذائه الرقيق.

يدخل الزوار وينتظرون طويلاً فى غرفة الضـيوف

الباردة التى أضاءها نور الشمس الكهرمـانى اللـون عبـر النافذة المزخرفة بالجليد. بعد ذلك يسمعون صوت الخطوات الحثيثة لربة البيت، فيقفون باستعجال تأهباً للقائهـا. وتـدخل الفنانة، منفعلة للغاية، وقد غطت وجهها بـالبودرة الكثيفـة، وعطرت يديها الضخمتين العظميتين، تدخل بسـرعة وهـى تحاول التحكم فى تلاحـق نبضـات قلبهـا، فهـى تعـرف الموضوع سلفاً، وتقول ببسمة ساحرة وبتبسط كبار القوم:

ـ أستحلفكم بحق الله أن تعذرونى أيها السادة، يبـدو أنى تركتكم تنتظرون؟

وانحنى الطالب مقبلاً يدها، وهو يقاطعهـا بـاحترام بالغ:

ـ بل نحن الذين نرجو أن تعذرينا عـن الازعـاج. حضرنا إليك لطلب هام وملح، موفدين من لجنة تنظيم الحفل الأدبى الموسيقى السنوى لصالح احتياجات تلاميذ المدرسـة رقم (٥) الموسكو"ية الثانوية. لقد منحتنا اللجنـة شـرف أن نرجوك أن تساهمى مشكورة فى هذا الحفل الذى سيقام ثالث أيام أعياد الميلاد.

وتفتتح حديثها بصورة رائعة:

ـ أيها السادة، لو كان من المستطاع أن تعفـونى.. المسألة أن..

لكن الآنستين تنقضان عليها بمودة وحرارة بالغتين، بتملق، بحيث أنها لا تتمكن من استكمال محاولـة الامتنـاع والاعتذار الضعيفة هذه.

بعد ذلك، تمر ثلاثة أسابيع بأكملها.

وثلاثة أسابيع بأكملها تعمل مدينة موسـكو وتتـاجر وتمرح، إلا أنها فى زحمة مشاغلها المتعـددة، ومصـالحها، ومباهجها، تعيش فى غورها على شىء واحد هـو ارتقـاب حفل يوم ٧٢ ديسمبر الشهير.

كثرة هائلة من الإعلانات، بجميع الألوان والمقاسات، زينت جدران كل الشوارع والتقاطعات: "فـى الحضـيض"، "الطائر الأزرق"، "الأخوات الثلاث"، شاليابين فى "الحورية"، سبينوف فى "ابنة الثلج"، شوركيرين فى "زيمين" أمسية مـع "ايجور سيفيريانين"... ولكن لا يخز نظر الناس الآن سـوى ذلك الإعلان الصغير، المطبوع عليه بأحرف ضـخمة اسـم

ولقب الفنانة التى تساهم مشكورة فى الحفل الأدبى الموسيقى لصالح احتياجات تلاميذ المدرسة رقـم (٥) الموسـكو"يـة الثانوية.

فى هذا الوقت، تقبع الفنانة فى بيتهـا، لا تغـادره. تعمل من دون يأس كى لا تخيب آمال موسكو، تختار بدون نهاية ما سوف تغنيه، تجرب صوتها مـن الصـباح حتـى المساء، تحفظ أغنية ثم تبدلها بأخرى. وتمر الأيام بسـرعة غير طبيعية فى هذه الفترة، سرعة تدفع الفنانة إلى الرعـب: "لا يكاد المرء يلتفت برأسه حتى يحل هذا اليـوم المفـزع.. السابع والعشرون من ديسمبر". أوقفت دروس الغناء، لم تعد تستقبل أحداً، وأصبحت لا تخرج من البيت خوفاً من نزلـة برد أو زكام.

"ماذا أقـدم بالضـبط؟". إن الجمهـور لا يتصـور صعوبة الإجابة على هذا السؤال حتى بالنسبة لأكثر الفنانين خبرة. فلابد لذلك من تألق الحاسة الفنية القوية، وقدرة لا تحد من الذوق والدربة والحذاقة. بعد طول الشكوك المعذبة، تكف الفنانة عن التردد، وتستقر برأيها على برنامجها الفنى القديم، الذى لا يتبدل، ومرة أخـرى تتـوالى الأغنيـات الـثلاث:

"الأولى: فرنسية حزينة رقيقة، ساحرة كأغانى المهد، تكمـن فيها على الرغم من ذلك، حرقة هائلة، قوة وألم روح الأنثى العاشقة المتعطشة للسعادة حتى الجنون، ولكنها تضحى بكـل شىء وتحرم نفسها من هذه السعادة. الأغنية الثانية: مشحونة بالجرأة الروسية، محشوة بالحلى الموسيقية المتلألئـة. ثـم تأتى الثالثة قمة الأغانى: "كنت أود لو قبلتك.. لكن أخشى أن يرانا القمر". وهذه الأخيرة يمكن كالعادة أن تبرق بصـورة خاصة، على أن تُؤدى أداء نارياً، بـدلال وشـباب، وعنـد ارتفاع صوتى مبهجاً إلى أقصى نبراته أقطع الغنـاء حتـى ترتج القاعة كلها بالتصفيق". إلى جانب ذلك تعد الفنانة اثنتى عشرة أغنية احتياطية لتلبية طلبات الجمهور إذا استزادها.

وتمر الأيام بسرعة، كلمح البصـر، فيتضـخم فـى روحها إحساس بأن ساعة الإعدام تقترب، وبالرغم من ذلـك فإنها تتدرب، وتتدرب. وها هو اليوم، الأخير، المميت يحـل فى نهاية المطاف!

فى صباح ٧٢ ديسمبر تحتشد كل قواها متوترة إلـى أقصى حد. مرة أخرى بروفة هذا الصباح، لكنهـا البروفـة الأخيرة، الشاملة. تغنى أثناءها كما لو كانت تقف على منصة

المسرح بالفعل: بملء صوتها، بكل قدرات التعبيـر الفنـى، تغنى البرنامج كاملاً مع عازف مصاحب، وتستشعر أنه: "لم يضع جهدى هباء". ومع هذا فمن يدرى ما الذى ينتظرها هذا المساء؟ النصر؟ أم الموت؟ ويلتهب وجهها ويداها، وتمضى بعد البروفة إلى غرفة نومها وتخلع ملابسـها وترقـد فـى السرير. وتحمل آنوشكا إليها هناك شيئاً غير مـألوف أبـداً: كافيار، فروج بارد، نبيذ "بورت فين"، هكذا يوم الحفلة تفطر كل الفنانات الكبيرات. بعد تناول الطعام تطلب من آنوشـكا إسدال الستائر فى الغرفة والانصـراف والمحافظـة علـى الهدوء التام فى الشقة. ثم تغمض عينيها فى الظلمة، مستلقية بدون أية حركة، وتحاول ألا تفكر فى أى شىء، وألا تنفعـل لأى سبب، ساعة، وأخرى، والثالثة، وهكذا حتـى السادسـة مساء. وفى السادسة تنتفض من رقدتها جالسة فى السـرير على جرس حاد فى الصالة. "إنه الحلاق"

ويدق قلبها، وتلتهب أذناها وعظمتا وجنتيهـا، وبيـد باردة كالثلج تنقط لنفسها أربعين نقطة من سائل أثيرى، ثـم تخطو لتجلس أمام المرآة فى ثوبها البيتى وشعرها المرسـل مثل عذراء جاءوا لتزيينها ودفعها للموت.

يدخل الحلاق وقد أدفأ يديه سلفاً فوق موقد المطـبخ. ويقول مشجعاً: ما أجمل الطقس فى هذا اليوم، صقيع هائل.. لكن ما أروعه!

إنه يعمل بتأدب وبطء، ويشعر أنه شريك فى الحدث المقبل، وهو يدرك قلقها الفنى، ويقاسمها ذلك القلق، إنه فنان بطبعه. وهو بأحاديثه البسيطة، غير المكترثة، بنكاته، وبشكل عام بكل خبرته فى هذه الأمور، وهى خبرة لا تضارعها إلا ثقته الأكيدة فى نجاح الفنانة القادم، يطمئنهـا شـيئاً فشـيئاً، وينعش قواها، وجرأتها. ينصرف الحلاق بعد أن ينتهى مـن عمله، ويتفحصه من كل الجوانب، متأكداً من أنه لا يمكنـه إضافة أية تحسينات على تسريحة وتصفيفة الشعر الرائعـة هذه.

وتدق ساعة الحائط ببطء فى غرفة الطعام، وتعلـن السابعة، ويتجمد قلبها من جديد: "سيأتون ليصطحبوها فـى الثامنة والنصف".

تدق الساعة الثامنة، وهى لم تتأهب بعد. مرة أخرى تتعاطى نقطاً من دواء آخر، هـذه المـرة "جوفمانسـكى". وترتدى أحسن ما عندها مـن الملابـس التحتيـة، وتحمـر

وجنتيها، وتضع البودرة. فى الثامنة والنصف يرن الجـرس الأخير الذى يصعقها كالبرق: "لقد وصلوا"!

وتهرول آنوشكا بصعوبة فى الصالة، وتبدو من شدة اضطرابها وكأنها شخص آخر، حتى أنها لا تتمكن من فـتح الباب على الفور.

إنهم، هذه المرة، طالبان وصلا فـى عربـة خيـل مستأجرة، قديمة وضخمة، مهيبة، شد إليها فرسان كبيـران منهكان. طالبان غندوران، تجمدت أقدامهما مـن الصـقيع. يمضيان إلى غرفة الضيوف، باردة ومملة كالعادة، تشـتعل فيها مصابيح تفوح برائحة الكيروسين. يجلسان، وقد ارتـديا نفس الزى المدرسى الموحـد، رأسـان يلمعـان كالمرايـا ويفوحان برائحة الـ "بريانتين" وعطر مثبت الشعر. علـى صدريهما عقدتان كبيرتان من الحرير الأبـيض، بالضـبط كوكلاء العرسان. يجلسان صامتين، يترقبان بأدب وثبـات، يتطلعان إلى كل ناحية، إلى الأبواب المغلقة، إلـى الزجـاج المتجمد وقد انعكس عليه نور المصابيح شعلاً متلألئة حمراء وزرقاء، إلى البيانو، وإلـى صـور المغنيـات الشـهيرات والمطربين المعلقة على الجدران، يسمعان طنين "الترمومايات"

المكتوم وصليلها من خلف النوافذ، ينصـتان إلـى صـوت الخطوات القلقة لآنوشكا، والفنانة خلف الأبـواب.. تنقضـى على هذا النحو ربع الساعة، نصف الساعة، أربعون دقيقـة، إلى أن ينفتح أحد الأبواب فجأة وبشكل غير متوقع، فيقفـزان من مقعديهما كأنما بأمر عسكرى. وتمضى الفنانة نحوهمـا مسرعة قائلة ببسمة ساحرة لا مبالية:

ـ أستحلفكم بحق الله أن تعذرونى أيها السادة، يبـدو أنى تركتكم تنتظرون؟ ماذا.. ترى هل أزف الوقـت حقـا؟ هيه.. حسنا فلنذهب إن شئتم، إنى جاهزة.

وبالرغم مـن الحمـرة والبـودرة، تشـتعل البقـع الأرجوانية ـ عبرهما ـ فى عظم وجنتيها، ويفـوح فمهـا برائحة نقط زهر السوسن، ويداها برائحة الكريم، وفسـتانها الشفاف الرمادى الفاتح ينشر العطر. إنهـا تشـبه المـوت متوجهاً إلى حفلة! وقد ألقت بشىء ما من الدانتيلا السـوداء، إسبانى، فوق شعرها الأشهب المجعد المنفوش من مختلـف نواحيه فى تصفيفة معقدة ومرتفعة عالياً، ووضعت معطفـاً من فرو ماعز أبيض مجعد على كتفيها العاريتين وقد برزت منهما عظمتا الترقوة كبيرتين.

أما الطالبان فيتدافعان من ورائها فى الصالة.

فى تلك اللحظة، يتناول الطالب الأنحـف والأطـول حذاء المطر، ويركع بسرعة واضعاً إياه على ركبته ويلبسـه للفنانة فوق حذائها اللامع ذى الإبزيم الماسى، ويشم فى نفس الوقت رائحة فئران منبعثة من تحت ابطىها حـين تنحنـى لتساعده، وتشد بتواضع فى نفس اللحظة طرف ثوبها ليغطى أطراف القميص الداخلى الأبيض المشغول بالدانتيلا..

غنت عن سحابة صادفت رعداً، وعن ملاذ من نوع ما "ربنا هبنا الملاذ"، وتألقت على نحو خاص فى "كنـت أود لو قبلتك.." وأثناء هذه الأغنية قهقه، بطريقة لاذعـة رجـل عجوز وغلاط، كان جالساً بالصـف الأول، وهـز رأسـه بصورة لا تحتمل إلا معنى واحداً هو: "لا شكراً.. لا تقبلينى من فضلك". لكنه للحق لم يلق تجاوباً من أحد، وحققت الفنانة نجاحاً باهراً، واستعادها الجمهور بلا توقف، وأرغمها علـى التكرار، استعادها خاصة الشباب المرهف الشعور الذى وقف فى الممرات بين الصفوف يزعق بشراسة ضارباً بمغـارف كفوفه، مصفقاً بدوى هائل.

سرقة

السرقة موجودة عندنا. لكنها تقل. الـبعض أصـلح نفسه وكف عن السرقة. آخـرون.. كيـف أقـول لكـم؟ لا ترضيهم تشكيلة البضائع التى بالسوق. قسم آخـر ـ وقـد أصبح لا يرى كبار المليونيرات والملاك ـ ضـبط نفسـه، وصار يسرق الآن من الحكومة نفسها. لكنهم بـدون شـك، وهذا أمر طبيعى، لم يعودوا يسرقون بالطريقة التـى كـانوا يسرقون بها فيما مضى، فالمغفل وحده، الذى لا يفهـم روح العصر، هو الذى يسرق فى أيامنا هذه. الكثيرون أصـبحوا يفهمون "الروح العصرية" بصورة ممتازة مستوعبين بالفعـل أحدث الاتجاهات.

على سبيل المثال، وقعت ـ من مدة بسيطة ـ حادثة سرقة فى جمعيتنا التعاونية، وفى تلك السرقة يمكننا أن نلمح على الأقل فكرة فلسفية.

وإليكم كيف جرى ذلك.

الجمعية التعاونية، يعنى المحل، مفتوحـة كمركـز لتوزيع البضائع. وبداهة أن هذه البضائع كثيرة. بط للتصدير

موضوع عند النافذة، سلمون ـ لماذا؟ لا أعرف. خنازير، لا تؤاخذنى، مقسمة إلى قطع كبيرة. جبن. هذا بالنسبة للأكـل. الحاجات الأخرى أيضاً موجودة بكثرة. جـوارب حريمـى، أمشاط، إلى آخره. كل هذا ملقى بـوفرة ومعـروض فـى "الفاترينة" بصورة مغرية.

وقطعاً وهذا شىء طبيعى، لفت ذلك نظر البعض.

خلاصة الكلام: شخص ما ـ من إياهم ـ تسلل فى ساعة ليلية إلى المحل عبر المدخل الخلفى، وهناك تصـرف براحته على الآخر.

المهم، فى ذلك الوقت استغرق الحارس فى نومه عند البوابة، فلم يلحظ شيئاً مريباً، وقال فيما بعد:

ـ صحيح أنى رأيت بعض الأحلام فى هذه الليلـة، لكنى لم أسمع من العالم الآخر شيئاً يدعو للريبة.

وبالمناسبة، لقد أصاب الحارس فـزع حـاد حينمـا اكتشفوا السرقة. وراح يهرول فى المحل هنا وهناك متشـبثاً بأطراف كل من يراه، متوسلاً إليه ألا يوقعه فى ورطة، وما شابه هذا.

قال له المدير:

ـ ذنبك بسيط. بالطبع لن يربت أحد علـى رأسـك امتناناً لك على نومك، لكن من المستبعد أن يلفقوا لك تهمـة ما. فلا تخف إذن، ولا داعى للتخبط هنا بين الأقدام، ولا تثر أعصاب عمال المحل بدهشتك. الأفضل أن تنصرف وتكمل نومك فى البيت.

لكن الحارس لم ينصرف. ظل واقفاً فى حالة تشوش وهو مغتم بسبب الكميات الكبيرة المسـروقة مـن الأشـياء وأخيراً قال:

ـ أما هذه، فلا يمكننى ـ بصراحة ـ أن أفهمها، أنا نومى خفيف، وحتى حينما أنام فإنى أمد ساقى بطول البوابة. غير معقول أنهم مروا عبرى بجوالين مـن السـكر؟! هـذه مسألة فى منتهى الغرابة؟!

قال المدير:

ـ نمت نوماً ثقيلاً جداً يا ابن الكلب! الكميات التـى سرقوها شىء مرعب!

قال الحارس:

ـ مستحيل أن يأخذوا الكثير، وإلا كنت استيقظت.

قال المدير:

ـ طيب.. الآن سنضع كشف المسروقات وسـنرى وجهك يا غراب البين، وسنرى حجم الخسارة التـى جلبتهـا على الحكومة والتى لا يصدقها عقل..

وأخذوا يعـدون كشـف المسـروقات فـى وجـود الميليتسيا(١)، وبدأوا، بعد الإحصاء والوزن وغيـر ذلـك، يتصايحون بتعداد المسروقات.

ووقف الحارس المسكين لا يفعل شيئاً إلا ضرب كف بكف وقد أوشك على البكاء، إلى هذه الدرجة كمـا تـرون يعانى مواطن آدمى أخذته الشفقة على الحكومة محتقراً نفسه لأن نومة أخذته.

يقول المدير:

ـ أكتب: "عشرة بود(٢) سكر قوالب. مائة وسـتون علبة سجائر. دستتان من الجوارب الحريمية. ثمـانى قطـع كبيرة من لحم الخنزير....

وبينما كان المدير يملى، كان الحارس عند سـماعه

لكل رقم يقفز من مكانه.

وفجأة صاحت عاملة خزانة الفلوس:

ـ قيد عندك، سرقوا من الخزانة كوبونـات قيمتهـا مائة واثنان وثلاثون روبل، وثلاثة أقـلام كوبيـا، ومقصـاً واحداً.

ووصل الأمر بالحارس ـ عند سماعه هذه الكلمـات ـ إلى درجة أنه جلس القرفصاء وصار يخور. إلى هذا الحد اغتم الرجل بسبب السرقات الضخمة، بينما صـاح المـدير بالميليتسيا:

ـ أبعدوا هذا الحارس إنه يعطلنا بخواره فحسب.

وقال له رجل الميليتسيا:

ـ اسمع يا عم، انصرف إلى بيتك سينادون لك حينما يحتاجونك.

فى هذه اللحظة زعق المحاسب من الغرفة الخلفية:

ـ كان عندى شال حرير معلقاً على الحائط، لكنـه اختفى، أرجو أن تسجلوا أننى أطلب تعويضاً عن الخسـارة

التى حاقت بى.

وعلى غير توقع صاح الحارس:

ـ آه من هذا السافل! أنا لم آخذ هذا الشال من عنده، ولم آخذ كذلك قطع لحم الخنزير. هذه بالفعل مسخرة! أنا كل ما أخذته قطعتين.

وهنا ساد المحل صمت مطبق. واستطرد الحارس:

ـ كلاب يلهفكم! نعم أنا الذى سرقت. أعترف. لكنـى بالمقارنة بكم إنسان نظيـف، ولابـد أن تعرفـوا أن كتابـة المحضر بهذه الصورة تغضبنى.. ولن أسـمح بتقييـد أيـة مسروقات زائدة فى المحضر.

قال رجل الميليتسيا:

ـ كيف ذلك؟ هل أفهم من هذا يا عم أنك أنت الذى تسللت إلى المحل؟

قال الحارس:

ـ نعم أنا الذى تسللت، لكن يـدى لـم تمتـد إلـى الكوبونات المالية ولا إلى المقص ولم آخذ أيضاً ذلك الشـال

القذر. إذا أردتم أن تعرفوا فقد أخذت نصف جـوال سـكر ودستة واحدة من الجوارب الحريمية وقطعتـين مـن لحـم الخنزير. أما عمليات الاحتيال هذه فلن أدعها تمر باسمى. إن عملى هو حراسة مصالح الحكومة وما يجرى هنا يغضـبنى كإنسان سوفيتى مع قائمة المسروقات المنحطة هـذه التـى يمررونها باسمى.

قال المدير:

ـ نحن عرضة للخطأ دون شك. لكننا سـنتأكد الآن من كل شىء، وسأكون سعيداً للغاية إذا اتضح أن المسروقات أقل. سنقوم بجرد كل شىء من جديد.

وارتفع صوت عاملة الخزانة:

ـ آسفة.. الكوبونات كانت مختفيـة فـى الـركن. الكوبونات موجودة، لكن المقص غير موجود.

زعق الحارس:

ـ آخ.. والله لأبصق الآن فى عينها التى لا تستحى! قلت إنى لم آخذ المقص من عندها، ابحثى باهتمام، أحسن لكِ يا رجل الفرخة! وإلا خلعتك من وراء الخزانة الآن فوراً.

وعادت عاملة الخزانة تقول:

ـ آه.. مضبوط.. وجدته، كان مختفياً راقـداً وراء الخزانة هناك.

وقال المحاسب:

ـ لقيت الشال، كان فى جيبى الجانبى.

وهنا قال المدير:

ـ طيب.. اكتب المحضر من جديد. فعلاً المسروق نصف جوال فقط من السكر.

انفجر الحارس:

ـ احسب عدد قطع اللحم، وإلا فأنا غير مسئول عما سيبدر منى! ومادامت المسألة قد وصلت إلى هذا الحد فـإن عندى شاهدة تؤكد أقوالى.. خالتى آنيوشا.

وسرعان ما أنهوا إحصاء المسروقات، واتضح أنها تطابق بالفعل ما اعترف به الحارس تماماً.

وقادوا الرجل إلى قسم الميليتسيا تحـت الحراسـة. واحتجزوا خالته آنيوشا التى كانت المسروقات مخبأة عندها.

وهكذا، كما ترون بأنفسكم، سرق البعض ما قيمتـه "كوبيك" واحد فحوله البعض الآخر إلى ألف. ويحس الإنسان فى مثل هذه الحالة بالنشاط العصرى، والتحليق المبدع للفكرة الفلسفية، وهو أمر كما يقولون تستحيل الحيـاة بدونـه الآن. بغير ذلك لا يسرق الآن إلا المغفل الذى سرعان ما يقع فـى أيدى السلطة

الكراهية

فى الحرب، تشبه الأشجار البشر، فتلاقى كل شجرة مصيرها الخاص، بطريقتها الخاصة. وقد تسنى لى أن أرى الأشجاروهى تتهاوى من قصف نيران مدفعيتنا فى مساحة كبيرة بإحدى الغابات، وكان الألمان قد تحصنوا بها بعد أن أجبرناهم على التراجع عن الغابة "س"، وظنت قوات العدو أن إقامتها ستطول فى الغابة الجديدة، ولكن الموت حصدها حصداً مع الأشجار، ورقد الجنود الألمان موتى عند جذوع أشجار الصنوبر المتهدمة، وقد تقيحت جثثهم أشلاء مقطعة وسط نباتات السرخس، وفاح عطر "الراتينج" بشدة من أشجار الصنوبر المنهارة، إلا أنه لم يبدد فى الجو الرائحة الحادة، النفاذة، الخانقة التى انبعثت من نتن الأبدان المتحللة. وبدا وكأن الأرض نفسها وحفر القنابل ذات الحواف الخشنة داكنة السمرة، تنشر فى الأجواء رائحة القبور.

ساد سكون الموت وجلاله ذلك المرج من الغابة الذى حرثته قنابلنا ولكن شجرة بتولا واحدة، نجت من الموت بمعجزة وظلت واقفة فى منتصف المرج، والريح تؤرجح

أفرعها التى أصابتها الشظايا وتغمغم بين أوراقهـا الغرويـة اللامعة.

تقدمنى جندى المراسلة ونحن نعبر المرج، ورأيتـه يتحسس ساق البتولا بنعومة، ثم تساءل بدهشة صادقة يغمرها العطف: "كيف نجوت

أيتها العزيزة؟".حين تصيب القذائف شجرة صنوبر، فإنها تنقصف كأنها جزت بمنجل، ولا يبقى منها سوى رأس مشرشر تبرز منه الأشواك ينز صمغ الشجرة. أمـا شـجرة البلوط فتواجه مصيرها على نحو مختلف، وقد رأيت شجرة بلوط عتيقة نهضت على ضفة نهير، فأصابت ساقها إحـدى القذائف الألمانية واخترمتها ثغرة متعرجة، فتيـبس نصـف الشجرة العلوى، وانحنى ـ عند الانفجار ـ نصفها الآخـر ومال صوب المياه. وبعث الربيع الشجرة من الموت علـى نحو مذهل، فاكتست أفرعها بالأوراق الجديدة النامية، ولعـل الأفرع المحنية ما تزال تشرب من الماء الجارى فى طفوها على سطح النهير، ونصف الشجرة العلوى ما يزال بلهفة يمد نحو الشمس أوراقه المشدودة الدقيقة.

* * *

جلس الملازم "جيراسيموف" عند مـدخل الخنـدق، وشرع يقص علينا بالتفصيل وقائع المعركة التـى خاضـتها كتيبته اليوم، وكيف نجحت فى صد هجوم من دبابات العدو.

كان "جيراسيموف" طويل القامة، محدودب الظهـر قليلاً، وكتفاه عريضتان مرتفعتان ولذا بدا مثل الصقر، بينما كان وجهه نحيفاً هادئاً وقد رانت عليه لا مبالاة غريبة. كان يسرد علينا ما جرى بصوت غليظ مشروخ وبين وقت وآخر يزر عينيه المتوهجتين من الإرهاق؛ وفيما ندر كان يشـبك أصابع يديه بمفاصلها الناتئة ببعضهما البعض، ومن الغريب أن هذه الحركة التى لم تكن تنسجم مع بنيته القوية وملامـح وجهه الشجاع الحيوى، كانت تعبر بشدة عن فاجعته الخرساء أو استغراقه العميق فى أفكار مضنية.

وفجأة توقف "جيراسيموف" عن حديثه، وانقلب لـون وجهه فى لحظة: فشـحب خـداه السـمراوان، واختلجـت عضلات فكه السفلى، وحدج بتركيز وثبـات أمامـه وقـد توهجت عيناه بكراهية ضارية لا تخمد حتى أننى اسـتدرت بشكل تلقائى ناظراً فى الاتجاه الذى تطلـع نحـوه؛ وهنـاك رأيت ثلاثة من الألمان الأسرى يمرون عبر خطوط دفاعنـا

الأولى متجهين نحو الغابة، يسير من خلفهم أحد جنودنا ببطء فى ردائه الصيفى الذى أحالت الشمس لونه فصـار أبـيض تقريباً بينما تدلت خوذته خلف رأسه وراحت بندقيته تتأرجح فى يده على إيقاع خطواته، وللحظة غشى عينى ومض ذؤابة نصل بندقيته فى الشمس.

مشى الألمان الثلاثة فى أحذيـة ملطخـة بالوحـل الأصفر، يجرجرون أقدامهم بتثاقل. كان الأول منهم رجـلاً تجاوز سن الشباب، غائر الوجنتين،نما على وجهـه شـعر داكن، خشن وقصير، وحين دنا فى سيره بمحـاذاة الخنـدق ألقى علينا نظرة ذئبية جهمة، ثم انحرف قليلاً عـن مشـيته وهو يعدل وضع خوذته المعلقة إلى وسـطه. حينئـذ وثـب "جيراسيموف" مندفعاً من مكانه وهو يصـيح فـى جنـدى الحراسة بصوت حاد كالعواء:

ـ ما هذا؟ هل تقوم بنزهة معهم؟ أسرع الخطـو.. قلت لك بسرعة.. هيا.

كان واضحاً أنه يود أن يقول أكثر من ذلـك، لكـن أنفاسه كانت قد تقطعت فى سورة غضـبه، فاسـتدار علـى عقبيه بعنف وانطلق يهرول هابطاً السلم إلى الخنـدق. كـان

المسئول السياسى جالساً، فأجاب على نظرتى المندهشة قائلاً بصوت خفيض:

ـ ليس بوسعنا أن نفعل شـيئاً، فأعصـابه مرهقـة للغاية؛ لقد عاش تجربة الأسر فى معسكرات الألمان. تـرى ألم يكن لديك علم بذلك؟ حينما يتوفر لديك الوقـت، جاذبـه أطراف الحديث، ودعه يقص عليك تجربته تلك. لقد عـانى الكثير فى معسكرات الاعتقال النازية، فلم يعد يطيق النظـر إلى جنود النازية الأحياء، نعم الأحياء. أما القتلى منهم فإنـه يتطلع إليهم بهدوء، بل ولعله يحس بنوع من الراحة فى تلك اللحظات، لكنه عند رؤيتهم أحياء أسرى يغلق عينيـه علـى الفور ويمكث جالساً والعرق يتصبب منه، أو يتحول عـنهم، وينصرف إلى مكان آخر.

ودنا المسئول السياسى منى وقد خفت صوته حتـى قارب الهمس:

ـ لقد اشتركت معه فى شن هجـوم علـى العـدو مرتين. كنت معه ورأيته أثناء المعارك قوياً كحصان، يكشف لك فى نيران الهجوم عن قدراته. لقد تسنى لـى أن أرقـب الكثيرين من الرجال المقاتلين، لكنى لم أر مثله مدافعاً مهاجماً

بمؤخرة ونصل البندقية. شىء مذهل لو تدرى.

* * *

فى تلك الليلة، قامت مدفعية الألمان الثقيلـة بقـذف مواقعنا بنيران متلاحقة على فترات زمنية متسـاوية، ومـن بعيد كانت تتناهى إلى أسماعنا أصوات إطلاق القذائف، ثـم تنقضى بضع ثوان من السكون لنسمع عالياً فـوق رؤوسـنا أزيز القذائف منتشرة كالنجوم فى السماء بصوتها المعـدنى الذى يزداد قوة، ليضعف ويتلاشى بالتـدريج خلفنـا عنـد الطرق التى تزدحم نهاراً بعربات نقل الـذخيرة إلـى خـط القتال، ومن هناك يدوى عالياً صوت الانفجارات المتتاليـة، وتومض القذائف مرتفعة فى الأجواء بأعمدة اللهب الأصفر.

فى فترات الهدوء التى تتخلل إطلاق النيران، يسـود الهدوء الغابة ويصبح بوسعك أن تسمع طنين الباعوض عند المستنقع القريب ونقيق الضفادع وهى تتنادى قلقة بعد إطلاق النيران.

كنا نرقد تحت شجيرة جوز، حين شـرع المـلازم "جيراسيموف" يروى لنا قصته بتمهل، وهو ينش ـ من وقت لآخر ـ الباعوض بفرع شجرة مكسور. وسأحاول أن أروى

لكم هنا قصته، بقدر ما تسعفنى الذاكرة..

بدأ "جيراسيموف" قائلاً:

"قبل الحرب كنت أعمل ميكانيكياً فى مصنع بغـرب سيبيريا، وفى السنة الماضية، فى ٩ يوليو، استدعونى إلـى الخدمة العسكرية، وعند سفرى وقفـت أسـرتى تـودعنى: زوجتى وولدانا وأبى العاجز. وانهمرت دموع زوجتى كمـا يحدث عادة فى تلك المواقف، ومع ذلك والتنى بنصائحها:

ـ "استقتل فى الدفاع عن بلـدنا وعنـا، ولا تخـف الموت ساعة الجد، المهـم أن نخـرج مـن هـذه الحـرب منصورين". وأذكر أننى ضحكت عقب كلماتها، وقلت لهـا: "هل أنتِ زوجتى أم محرض الأسرة السياسى؟ مـن تظنـين نفسك؟ على أية حال كونى واثقة، فأنا رجل كبير وعاقل ولا تشغلى رأسك بخصوص النصر، تأكدى أننا سـننتزعه مـع حلوق جنود العدو".

وبطبيعة الحال، كان أبى ساعة السفر أكثر تماسـكاً من زوجتى، ولكن لم يكن هناك مفر مـن الإنصـات إلـى نصائحه وتوصياته:

ـ "يا فيكتور يا ولدى.. كن حريصاً فأنت من عائلة "جيراسيموف"، واسمنا معروف وله وزنه، فاذكر أنك سـليل أسرة من العمال، جدك كان يعمل عند عائلة "سـتراجانوف" وظلت عائلتنا مئات السنين تستخرج الحديـد للبلـد، فكـن كالحديد فى الحرب، الحكومة حكومتك وهى التى عينتك قبل الحرب رئيساً للمخازن.. أتفهمنى؟ اضرب أعداءنا بشدة".

قلت له:

ـ "سيكون كل شىء على ما يرام يا أبى، فاطمئن".

فى طريقى إلى محطة القطار عرجت على مجلـس المنطقة الحزبى. وكان سكرتير المجلس رجـلاً جافـاً فـى معاملاته، يناصر كل ما هو منطقى فحسب، وفكرت بينـى وبين نفسى: إذا كان أبى وزوجتى لم يتركانى أسافر من دون "توعية وتعبئة"، فلا شك أن سكرتير المجلس الحزبـى لـن يعتقنى أبداً، وسيلقى على خطبة عصماء تسـتغرق نصـف ساعة على الأقل.. نعم.. سيلقى خطبة من كل بد!

قال لى الرجل:

ـ اجلس يا "جيراسيموف". فلنقعد دقيقة للطريق قبل

السفر(١).

جلسنا دقيقة ونحن صامتين، ثـم نهـض سـكرتير المجلس، ولمحت كيف غام زجاج نظارته. وقلـت لنفسـى: تفضل انظر ما يجرى اليوم من أشياء غريبة.

وقال لى السكرتير: ليس هناك ما يستحق الإيضـاح يا "جيراسيموف". أنى أذكرك منذ كنت ولداً صغيراً ترتـدى ربطة عنق "الرواد"، ثم حين كبرت وصـرت عضـواً بـ "الكومسومول"، وعرفتك بعد ذلك ـ رجلاً شيوعياً ـ علـى امتداد عشرة أعوام. سيقاك القطار إلى جبهة القتال بعد قليل، فاضرب أولئك السفلة من دون شـفقة أو رحمـة. منظمتنـا الحزبية هنا تأمل أن تسمع عنك كل ما هو مشرف".

للمرة الأولى فى حياتى عانقت سـكرتير المجلـس وقبلته. لقد مر اللقاء على عكس ما تصورته حقاً، ليس مـن السهل أن تعرف الإنسان. لقد رأيت فـى الرجـل الجـاف كالخبز المحمص إنساناً آخر. وغمرنـى دفء مـن مودتـه فخرجت من عنده سعيداً وقد هزنى اللقاء.

عند محطة القطار، روحت عنى زوجتى بـدورها.

ويعرف الجميع أن زوجة تودع زوجها الذاهب إلى الجبهة لا يمكن أن تكون سعيدة! أربكها الفراق الوشيك، وجعلها الحزن مشوشة، مشتتة، وطير أفكارها من رأسها، وبدا لى طـوال الوقت أنها تريد أن تقول لى شـيئاً مهمـاً للغايـة لكنهـا لا تعرفه.. حينما شرع القطار يتحرك أخذت تهرول بمحـاذاة شباك العربة الذى أطل منه، ولم تفلت يدى من يدها وهـى تقول بلهوجة: "انتبه لنفسك يا فيكتور، إياك أن تمرض فـى الجبهة". وقلت لها: "ماذا جرى لك يا نادية؟ تأكدى أننى لـن أمرض مهما حدث، وخاصة أن الطقـس هنـاك ممتـاز لا يعرف التقلبات".

كان الوداع مراً على نفسى، رغم أن ما قالته زوجتى من كلمات حبيبة وحمقاء قد روح عن نفسـى، لكـن طعـم الوداع المرير كان عالقاً بروحى، واندلعت فى نفسى كراهية عنيفة للألمان. وقلت لنفسى: لقد بدأ جارنا الألمـانى عـديم المبدأ بالعدوان، فليتماسك الآن، فسوف نطحنهم إلى النهاية.

صمت "جيراسيموف" عدة دقـائق، لينصـت إلـى الأصوات المتفجرة من المدافع الرشاشة وهى تتبادل النيران بعيداً عن خط القتال الأمامى، وحينما سكتت المدافع، واصل

حديثه كما بدأه فجأة:

ـ "قبل نشوب الحرب، كانت المعدات الألمانية تـرد من ألمانيا إلى المصنع الذى عملت به، وعند تجميـع الآلات فى الورشة، كنت أحياناً أقلب بين يدى مرة واثنتين وخمـس كل جزء دقيق من تلك المعدات واتأمله متفحصاً مـن كـل الجوانب.. فلا يسعنى إلا الاعتراف بمهارة الأيـادى التـى صنعت ذلك. وكنت اقرأ أعمال الكتاب الألمان وأقدرهم حق قدرهم، واعتدتُ أن أنظر إلى الشعب الألمانى عامة باحترام. واشتعلت الحرب بداية فى أوروبا الغربية، فكنت فى بعـض الأوقات أحس بالأسف لأن شعباً كادحاً وموهوباً مثل الشعب الألمانى يحتمل بصبر نظام النازية السافل.. وحـين مضـى القطار مسرعاً فى طريقه إلى الجبهة خطر لـى أن الجـيش الألمانى متفوق، وأسلحته ومعداته ممتازة، ومع ذلـك فـإن التصدى لمثل ذلك العدو وكسره نصفين أمر مشرف وباعث على الفخر. والحق أننا لم نكن ـ عام ١٩١٤ ـ قشاً يمكـن حرقه بسهولة، كما أننى لم أتوقع للحظة واحدة أن يقاتلنا ذلك العدو قتالاً نظيفاً، فعن أى شرف يمكن أن يدور الحديث حين يتعلق الأمر بالفاشية؟! بالرغم من هذا، فلم يخطر ببالى أبـداً

أنه سيتحتم علينا خوض المعارك ضد عدو بمثل هذه السفالة وموات الضمير التى كشف عنها جيش النازية الهتلرى.

وصلت كتيبتنا إلى الجبهة فى نهاية شـهر يوليـو. وفى الصباح الباكر، فى السابع والعشرين من ذلك الشـهر، شاركنا ـ للمرة الأولى ـ فى المعارك. كـان القتـال فـى البداية مخيفاً بدرجة ما وذلك لحداثة عهدى به. وقـد تفـوق العدو علينا فى بداية التحامنا به، ولكن مع حلـول المسـاء كانت كتيبتنا قد تمكنت من استخدام السلاح، وتبـدد خـوف المعركة الأولى، فتقدم الرجال وتوالت اللطمات على وجـه الألمان فكسرنا لهم أسنانهم، وطردناهم من القرية التى كانوا بها، بل وأسرنا منهم ـ فى نفس الموقعة ـ خمسـة عشـر جندياً. أذكر كيف قاد رجالنا الأسرى الألمان، أذكر ذلك كأنه يجرى الآن أمام عينى.. كانت وجوههم شاحبة، وقـد حـط عليها الذعر، أما رجال كتيبتى فقد تناثروا يسـترخون بعـد المعركة، وأخذ كل منهم يقدم للأسرى ما فى وسعه: أحـدنا أتى إليهم بدلو ممتلىء بالشوربة، والآخر بسجائر، والثالـث قدم إليهم أقداح الشاى. كانوا يقومون بذلك وهـم يخبطـون ظهور الألمان، وينادونهم "يـا زمـلاء"، ويسـألونهم "مـا

مصلحتكم فى هذه الحرب أيها الزملاء؟".

أثناء ذلك، كان أحد المقاتلين القدامى مـن رجالنـا يتطلع إلى ما يجرى، ولبث مدة يتأمل تلك اللوحة المـؤثرة، ثم قال لنا: "لقد أثار هؤلاء الزملاء شفقتكم.. نعم.. فكلهم فى الأسر يصبحون "زملاء"، ليتكم رأيتم ما يقـوم بـه هـؤلاء "الزملاء" هناك وراء خطوط القتال، وكيف يعاملون جرحانا والسكان العزل". قال ذلك ثم استدار ومضى، بعد أن انصبت علينا كلماته كأنها ماء بارد.

فى فترة لاحقة انتقلنا من حالة الدفاع إلى الهجـوم، متوغلين فى الأراضى التى احتلها الألمان، وهناك.. شاهدنا ما يبعث على الرعب حقاً: القرى التى أحرقت عن آخرهـا، مئات النساء والشيوخ والأطفال وقد تناثرت جثثهم فى كـل مكان بعد أن أفرغت فيهم طلقات الرصاص، وجثـث مـن كانوا فى الأسر من جنودنا وقد مثلوا بها، وأبـدان النسـاء المغتصبات وقد قتلن بوحشية، بل وشـاهدنا جثـث البنـات الملقاة على الطريق، وجثث البنات القاصرات أيضاً.

لكن صورة بالذات لم تفارق ذاكرتى من بين كل مـا رأيته: كانت صبية لا يتجاوز عمرها الحادية عشرة، لا أكثر

من ذلك، والأرجح أنها كانت تسير قاصدة المدرسة، فأمسكوا بها وجرجروها بـالقوة إلـى الحديقـة القريبـة، وهنـاك اغتصبوها.. ثم أفرغوا فيها رصاصهم. مازلت أراها ملقـاة بين أوراق حبات البطاطس المدعوسة وقد تبعثرت من حولها كراسات المدرسة وكتبها غرقى فى الدماء. لم تكن أكثر من بنت صغيرة، طفلة تقريباً، رقدت وقبضة يـدها متشـنجة لا تفلت ذراع الحقيبة المدرسية المفتوحة. لا أدرى لماذا شجوا وجهها الصغير بساطور على ذلك النحو الوحشى؟ غطيناهـا بقطعة من قماش الخيام، ووقفنا أمامهـا صـامتين. تفـرق الرجال دون صوت، وظللت واقفاً وأخذت وأنا أرتجف مـن الانفعال اقرأ بصوت خفيض: "الجغرافية الطبيعية. للمدارس الابتدائية والاعدادية". كان ذلك الكتاب الملقى على الأعشاب مألوفاً، فهو الكتاب المقرر على ابنتى التلميذة بالسنة الخامسة الابتدائية.

كان ذلك فى "روجين"، وعند "سكفير" وقع بصـرنا على واد ضيق عذبوا فيه رجالنا الأسرى. لقد بدا المكان مثل حوانيت الجزارة تقريباً: كانت جذوع الأبدان البشرية تتـدلى من الأشجار، مدماة، بلا أياد ولا أقدام، وقد سلخوا جلودهـا.

وفى قاع الوادى رأيت كومة ملقاة فى ناحية، كومة من ثمانية من رجالنا. وكان من المستحيل أن تعرف أية ذراع، وأيـة ساق، لأية جثة من الرجال. كومة من اللحم المجـزور.. لا أكثر، تراصت فوقها مثلما تتراص الأطباق ثمانية أغطية من أغطية الرأس.

أتظن أن كلماتى قد تصف لك أو تعبر عما شاهدته؟ لا. ثمة أشياء تعجز الكلمات عن تجسيدها، لابد لك أن ترى بنفسك ما وقعت عليه عيناى.

صمت "جيراسيموف" لفترة من الوقت، وسألته: "هل يمكننى هنا أن أشعل سيجارة؟" أجابنى بصوته الأجش: "نعم، ولكن داريها فى قبضتك". وأشعل سيجارة هو الآخر وواصل قائلاً:

ـ "لعلك تفهمنى، لو قلت لك إننا صرنا كـالوحوش الضارية، بعد أن روعنا كل ما اقترفه جنود العدو، ولم يكن بوسعنا ألا نتوحش. لقد أدركت كتيبتنا كلها أننا نحارب ذئاباً مسعورة ولغت فى دمائنا فانتشت وتضخمت كالغيلان. كانوا يذبحون ويهتكون أعراض أخواتنا ويعذبون أهلنا بنفس الدقة والمهارة التى لمستها بنفسى فيمـا صـنعوه مـن معـدات

ومخارط وآلات.

فيما بعد، أرغمونا على التقهقر والانسـحاب، ومـع ذلك كنا أثناء تراجعنا نشتبك معهم، ونتصدى لهـم كـالجن الأزرق. كان أغلب رجال كتيبتى من سـيبيريا، واستشـهد الكثيرون منهم فـوق أرض أوكرانيـا، حيـث دارت تلـك المعارك دفاعاً عن أوكرانيا، وقد حـارب الرجـال ببسـالة واستماته لا نظير لها، وبالرغم من تقهقرنا إلا أننا أذقنـاهم الويل على أصوله ودفنا منهم عدداً كبيراً.

شد الملازم "جيراسيموف" دخان سـيجارته بـنهم، وتابع بنبرة أرق:

ـ ما أجملك يا أرض أوكرانيا الطيبة، ومـا أجمـل الطبيعة هناك..

لقد صارت كل قرية صغيرة، وكل شـجرة عزيـزة على قلوبنا، ربما لأننا بذلنا دماءنا وأرقناها هناك، والدم كما يقول المثل يخلق القرابة والمودة، وكنت فى كل مرة ننسحب فيها من إحدى القرى أحس بالألم يعتصر قلبى، وكأن لعنة قد حقت عليه. كان تقهقرنا يثير شعوراً عميقاً بالأسف المريـر.

وفى أثناء تراجعنا كان الرجال يتجنبون النظر إلى بعضـهم البعض.

حينذاك، لم يطرأ لى أنه قد يحل على يوم أكون فيـه أسيراً لجنود العدو. لكن ذلك ما جرى.

فى سبتمبر، اشتدت المعارك عنفاً، وأصبت ـ للمرة الأولى ـ بجرح لم يمنعنى من البقاء مـع كتيبتـى. وفـى الحادى والعشرين من نفس الشهر فى الموقعـة التـى دارت حول "دينيفسكى" و "بالتافسكى"، أخذت دبابات العدو تختـرق جناحنا الأيسر، واشتد هجومها حتى نجحت فى إحداث ثغرة، فنفذ المشاة منها متدفقين بكثرة، وقمنا بصد هجـومين مـن الدبابات وأثناء ذلك دمرنا وأحرقنا سـت دبابـات وعربـة مصفحة، ثم تراجعنا إلى حقل ذرة واسع فلاحقونـا هنـاك، وأسقطنا منهم مائة وعشرين جنـدياً، وحينـذاك اسـتعانوا بمدفعية الهاون الثقيلة، وتكاثفت النيران علينـا فاضـطررنا لتسليم التلة التى كانت فى أيدينا منذ منتصف النهار وحتـى الساعة الرابعة، وأخذنا فى الانسحاب. وعانت كتيبتـى مـن خسائر كبيرة فى الأرواح، ولكننا كسرنا الحصار المضروب علينا وخرجنا منه ونحن نقاتل.

فى ذلك اليوم كان الجو حاراً منذ مطلع النهار، ولـم تعبر السماء سحابة واحدة، واشتد قيظ الشمس حتى شعرنا أن الجو قد خلا من نسمة هواء نتنفسها، وكنا نعانى من عطـش قاس وقذائف العدو تلاحقنا بكثافة ونحن ننسحب، واشتد علينا العطش حتى اسودت شفاه الرجال، وأثناء ذلك كنت أعطـى الأوامر لتنظيم تراجعنا بصوت أجش غريب لم أتعرف عليه، وكنا نمضى فى اتجاه وهدة بعيدة حـين انفجـرت أمـامى بالضبط إحدى القذائف، وأذكر أننى رأيت عموداً من الغبـار الهائل يرتفع من الأرض إلى أعلى، ولم أر سواه.

لا أدرى كم من الوقت ظللت راقداً على الأرض فاقد الوعى، لكنى بدأت أسترد وعيى على صوت خطوات تقترب منى. رفعت رأسى فوجدتنى راقداً فى مكـان غيـر الـذى سقطت فيه، وقد نزعت عنى ملابسى العسكرية، وكذلك لـم أجد خوذة رأسى. ولمحت كتفى مضمدة كيفما اتفق ورأسـى ملفوفاً بربطة شاش غير محكمة تدلى طرفها فوق صـدرى. لقد اخترقت إحدى الشظايا خوذتى نافذة إلى رأسـى، بينمـا استقرت شظية أخرى فى كتفى اليمنى. وتصـورت للحظـة خاطفة أن رجال كتيبتى ـ حين سقطت فاقد الوعى ـ قاموا

بنقلى إلى مكانى الجديد، وضمدوا جراحى أثنـاء سـيرهم، ورفعت رأسى متوقعاً أن أرى زملائى من حـولى.. لكـن جنود العدو هم الذين هرولوا نحوى، وهم الذين ردونى إلـى وعيى بوقع خطواتهم. رأيتهم بوضـوح ودقـة كمـا تـرى الأشخاص على شاشة سينما واضحة. تحسست ما حولى، فلم أعثر على بندقية أو مسدس أو قنبلة يدوية. وأدركت فى التو أن أحد رجالى فضل أن يجردنـى مـن سـلاحى وحقيبـة اللوحات الطوبوغرافية.

وقلت لنفسى: "هذه هى النهايـة". وتناوبـت علـى مختلف الانفعالات والأفكـار التـى لـم يسـعفنى الوقـت لاستيضاحها، فإذا كانت قصتى هذه قد تنفعك مـادة لروايـة تكتبها، فتخيل أنت ما يرد إلى العقل من أفكار فى مثل هـذه المواقف واملأ هذه الثغرة من قصتى.. على أية حال، أخذت جنود العدو تدنو منى، ودهمنى شعور بمهانة رقـدتى فـى انتظار الموت.. تمنيت لنفسى الموت بكل الطرق إلا تلـك.. هل تدرى قصدى؟ ولا أدرى كيف استجمعت قـواى متكئـاً على ركبتى مستنداً إلى الأرض بيدى بحيث أنى وقفت على قدمى منتصباً أمام الألمان حين وصلوا إلى. وقفت، ولكنـى

كنت أتطوح فى مكانى، وأصابنى الرعب من أن أقع علـى الأرض، فيقضون على وأنا راقد لا حول لـى ولا قـوة. لا أذكر الآن وجهاً واحداً من وجوه أولئك الجنود الذين أحاطوا بى وهم يقهقهون. أذكر فقط أنى صرخت فيهم: "اقتلـونى.. اقتلونى أيها السفلة قبل أن أسقط". ولطمنـى أحـدهم علـى رقبتى بمؤخرة البندقية فوقعت على الأرض ولكنى وقفت فى الحال مرة أخرى. وعلت قهقهاتهم، وأشار أحدهم بيده كأنما يقول لى: "سر إلى الأمام إذا استطعت.. تقدم". وسرت نحوه بالفعل ووجهى ملطخ بالدماء الجافة، تجرى عليه من جـرح رأسى خيوط من دم متدفق، دافىء ولزج. واعتصـر الألـم كتفى المصابة، وتمنيت من أعماقى أن أرقد على الأرض من دون حركة. ولكنى واصلت سيرى إلى الأمام، لـيس بـدافع إنهاء حياتى أو الوقوع فى الأسر خلاصاً من آلامـى، لكـن الرغبة فى النجاة هى التى قادتنى، سرت متغلباً بمجهود هائل على دوار الرأس ورغبتى فى القيىء.. سرت فأدركت أننى مازلت حياً وأستطيع أن أفعل ما أريد. ألم واحد فـاق كـل الآلام: الظمأ المعذب الذى شقق حلقى الجاف، وبينما كانـت قدماى تخطوان تماوجت أمام عينى غلالة سوداء. كنـت ـ

دون أن أدرى ـ فاقد الوعى تقريباً ومع ذلك كنت أتقدم إلى الأمام وقد خلت أننى ما أن أشرب فأرتوى وألـتقط أنفاسـى مستريحاً قليلاً حتى أعدو هارباً.

عند طرف من أرض مشجرة، جمعوا كل من وقـع فى الأسر. أوقفونا فى صف واحد، أغلبه من الجرحى، مـن فرق وألوية جاورتنا، ومن كتيبتى لحظات اثنين فقط.

سأل الضابط الألمانى بروسية ركيكة:

ـ هل بينكم موجهون سياسيون أو ضباط مـن ذوى الرتب الكبيرة؟

ولزم الجميع الصمت. فقال من جديد:

ـ فليتقدم الموجهون السياسيون والضباط خطـوتين للأمام.

ولم يتحرك أحد من بيننا. وسار الضـابط الألمـانى ببطء مستعرضاً وجوهنا واحداً بعد الآخر، وهو يسـأل كـل منا: "هل أنت موجه سياسى؟". ولم يكن يتمهل لكـى يسـمع الإجابة بل كان يأمر من يقع عليه اختيـاره بـالخروج مـن الصف. وهكذا انتخب مجموعة من مختلف الجنسيات: مـن

الروس، والأوكرانيين، والأرمن وغيرهم. وقادوهم بعيداً عنا فى ناحية ثم أفرغوا فيهم نيران المدافع الرشاشـة ورأينـاهم يتساقطون مضرجين بدمائهم. بعد ذلـك فتشـونا بسـرعة، وعثروا على محافظ عند البعض منا فاستولوا عليها وعلـى كل الأشياء الشخصية. ولم أكن أحمل بطاقتى الحزبية داخل محفظتى، خشية أن أفقدها، كنت أخفيها فى الجيب الـداخلى من السروال، ولم يعثروا عليها أثناء التفتيش السريع. حقاً إنه لمخلوق عجيب هذا الإنسان، فقد كنت أعرف أنهـم إذا لـم يقتلونى فيما بعد أثناء محاولة هرب، فسيقضون على أثنـاء الطريق إذا لم استطع أن أجارى الآخرين فى سرعة مشـيهم من كثرة ما فقدت من دماء، وعلى الرغم من كل ذلك، حينما انتهى التفتيش وظلت بطاقتى الحزبية معى، غمرتنى بهجـة عجيبة حتى أنى نسيت للحظة لهب الظمأ.

صفونا فى طابور واحد ودفعونا إلى السير فى اتجاه الغرب. وكان يحرسنا على جانبى الطريق عدد كبيـر مـن جنود العدو، غير عشرة من ركاب "الموتوسيكلات". أجبرونا على المشى بخطوة سريعة، وخارت قواى بعد فترة صغيرة فسقطت واقعاً على الأرض مرتين، وكنت أنهض بسرعة من

جديد مواصلاً السير، لأننى أعرف أنهم سيطلقون النار على فوراً إذا طالت رقدتى لأكثر من دقيقة واحدة، هذا مـا وقـع لجندى كان يمشى أمامى، سار بصعوبة بالغة وهو يئن طيلة الوقت، بل وكان يصرخ أحياناً من شدة الألم الذى ينتابه من ساقه الجريحة. مشينا أكثر من كيلو متر على هذه الحال، إلى أن توقف وصرخ بصوت عال: "لم أعد أستطيع.. لا.. ليس بوسعى.. وداعاً أيها الزملاء". وانهار جالسـاً فـى وسـط الطريق. أسرع القريبون منـه لمعاونتـه علـى النهـوض، وأوقفوه على قدميه عدة مرات، لكنه كـان فـى كـل مـرة يتهاوى على الأرض من جديد.

وأذكر، كأنما فى حلـم، وجهـه الشـاب الشـاحب وحاجبيه المقطبين، وعينيه المغرورقتين بالـدموع. واصـل الطابور سيره إلى الأمام. وظل هو وحـده ملازمـاً مكانـه خلفنا. واستدرت برقبتى إلى الوراء، نحوه، وشاهدت جنـدياً من راكبى الموتوسيكلات يقترب منه، ودون أن ينزل عـن الموتوسيكل، أخرج مسدسه من جرابه وصـوبه نحـو أذن زميلنا وأطلق النار عليه دون كلمة واحدة.

حين وصلنا إلى شاطىء النهر، كان جنود العدو قـد

أفرغوا رصاصهم فى عدد من رجالنا الذين عاقتهم جراحهم عن مواصلة السير.

نظرت إلى النهر، وإلى جسر مدمر كان يصل بـين ضفتيه، ورأيت عربة نقل مقلوبة تسد جانباً من الطريق، ثـم سقطت على وجهى. ترى هل فقدت وعيى؟ كلا. لقد رقـدت وفمى ممتلىء بالتراب، وأنا أكز على ضروسى من قهـرى، حتى تفتت التراب بينها. لكنى لم أستطع أن أنهـض واقفـاً. ومر زملائى من جانبى، وهمس أحـدهم بصـوت خافـت: "انهض وإلا قتلوك فوراً". وضغطت عينى بعنـف ومزقـت فمى بأصابعى، لعل الألم يردنى إلى نفسى فأنهض. وتخطانى طابور الأسرى وبدأت أسمع حفيف عجلات الموتوسيكل يدنو منى. وقمت. ورحت أمشى مترنحاً كالمخمور، بل وأرغمت نفسى على اللحاق بالطابور والانتظام فى مؤخرته.

سبقتنا دبابات العدو وعرباته الآلية وعبـرت النهـر وعكرت ماءه، ومع ذلك فقد عببنا من ذلـك المـاء بـنهم، وشربنا ذلك الطمى البنى الدافىء، وبدا لنا أنه من أصفى مياه الينابيع. بللت رأسى وكتفى بالماء، فانتعشت وعـادت إلـى قواى. الآن أصبح بوسعى أن أمشى آملاً أننـى لـن أنهـار

واقعاً، ولن أرقد على الأرض.

اجتزنا النهر، ومضينا أبعد قليلاً، ومن أمامنا أقبـل علينا رتل من دبابات العدو يتحرك صـوبنا، ومـا أن رأى سائق الدبابة التى بالمقدمة أننا من الأسرى حتى ضغط على دواسة الوقود إلى النهاية مندفعاً بدبابته بأقصى سرعة نحـو الصفوف الأولى منا، فهرس من هرسه من الرجال وسـحق الآخرين تحت حديد الدبابة.

نظر جنود العدو من المشاة وراكبى الموتوسـيكلات إلى ذلك المشهد وهم يقهقهـون. وأطـل سـائقو الـدبابات برؤوسهم وهم يصيحون ببعض الكلمات ويلوحون بأيـاديهم فى استحسان. مرة أخرى رتبوا صفوفنا وحادوا بنـا عـن الطريق لنواصل السير. يا لها من فكاهة حقاً؟!

لم أحاول الهرب لا فى مساء ذلك اليـوم، ولا فـى الليل أيضاً. كنت أعرف أننى لن أوفق بسبب الإنهـاك ومـا فقدته من دماء، فضلاً عن تشديد الحراسة علينـا. ولكنـى، لعنت نفسى مراراً فيما بعد لأننى لم أحاول الهرب فى تلـك الليلة.

فى الصباح قادونا عبر إحدى القرى المحتلة، وتقاطر جنود العدو من كل ناحية ليتفرجوا علينا. وأرغمتنـا قـوات الحراسة على الركض، لكى يشاهدنا الجميـع علـى امتـداد الطريق بالقرية. واستهدفوا بذلك تحقيرنا أمام زملائهم. كنـا نعدو، والرصاص من خلفنا يلاحق من يسقط من الإعياء أو يتخلف قليلاً.

وعند حلول المساء كنا قد بلغنا ـ أخيراً ـ معسـكر الأسرى المخصص للعسكريين. كان المكـان فـى الأصـل مجرد "جراج" كبير للعربات والجرارات، فأحاطه جنود العدو بالأسلاك الشائكة الكثيفة. ووقفنا جميعاً فى فناء "الجراج" كتفاً إلى كتف. سلمونا لحراس المعسكر، فأخذ هـؤلاء بـدورهم يدفعوننا بمؤخرات البنادق إلى داخل الحوش. ولو قلت لكـم إن ذلك الحوش هو الجحيم بعينه، أكون كأنى لم أقل شيئاً: لم تكن تتوفر به دورات مياه، فكنا نبول ونتبرز حيثما أمكـن، فى كل الأركان، وفيه كنا ننام وسـط وسـاخة الطـين ذى الرائحة النتنة، وفيه كنا نقف صفوفاً حين يأمروننـا بـذلك. وكانوا يصرفون لنا الطعام والماء مرة واحدة فى اليوم، حفنة من الجريش النيىء أو بذور عباد الشمس المتعفن مع قـدح

واحد من الماء، لا أكثر. وفى بعض الأيام كـانوا ببسـاطة ينسون صرف الطعام لنا. بعد يومين من إقامتى فى المعسكر انهمرت الأمطار بغزارة، فذابت الأوساخ المتجمدة بـأرض الحوش حتى أننا كنا نخوض فيها إلى الركب. وفى صـباح اليوم التالى أخذ البخار يتصاعد من أجسام الرجال المبلولـة كأنه البخار المتصاعد من أبدان الخيول.. وتساقطت الأمطار بلا توقف ليلة بعد الأخرى، وفى كل ليلة كان يمـوت منـا عشرات الرجال الذين أنهكهم الضعف وسوء التغذية.

فى ذلك الحوش، وفى تلك الظروف، اشتدت علـى آلام كتفى ورأسى، وتضاعفت فى اليوم السـادس، وأخـذت جراحى فى التقيح، ثم صارت رائحة كريهة لا تطاق تنبعث منها.

فى صباح اليوم التالى، توجهت إلى ضابط الصـف المسئول عن حراستنا ورجوته أن يأذن لى بالـذهاب إلـى الطبيب، وكان الضابط يتقن اللغة الروسية. قال لى: "اذهـب إلى طبيبك أيها الروسى، وسيسعفك فى الحال". ولم أدرك ما ينطوى عليه كلامه من سخرية إلا فيما بعد، حين سألت عن الطبيب فقالوا لى إنه فى اسطبلات الخيـول مـع الجرحـى

المصابين بشدة. ومضيت إلى تلك الاسطبلات التى تقع قرب المعسكر، وكانت فيما مضى تابعة للمزارع التعاونية.

عند مدخل الاسطبلات التقيت بالطبيب، كان ضابطاً برتبة صغيرة، نحيفاً من شدة التعب، يكاد يجن ممـا حولـه ومما عاناه شخصياً، فبدا لى أنه على حافة الموت والانهيار. كان الجرحى يرقدون على فرش من السبخ وهم على وشـك الاختناق من الرائحة النتنة غيـر المحتملـة التـى عبـأت الاسطبل. ورأيت كيف كانت الديدان تسـرح وتشـغى فـى جروح معظمهم، على حين كان القـادرون مـنهم ينتـرون الديدان من جراحهم بأظافرهم أو بعيدان صغيرة. وفى ركن من الأركان رأيت كومة من جثث الموتى لم يسعف الوقـت أحداً لنقلها خارج الاسطبل.

التفت إلى الطبيب متسائلاً: "كيـف أسـاعدك؟ بـم أسعفك؟ ليس لدى ضمادة واحدة، بل وليس لـدى أى شـىء على الإطلاق. أستحلفك بالله أن تنصرف من هنا. وإذا شئت نصيحتى فمزق ضمادتك ورش على جرحـك قلـيلاً مـن الرماد.. سيساعدك ذلك. عند المدخل ستجد الرماد الطازج".

فعلت ما نصح به الطبيب. وعند انصرافى، قـابلنى

عند المدخل، الضابط الألمانى، واتسعت بسمته وهـو يقـول لى: "هيه.. كيف حالك؟ لديكم طبيب ممتاز.. لا شـك أنـه أسعفك؟". وقررت أن أتحاشاه، فسرت بجانبه صامتاً، لكنـه لطمنى على وجهى بقبضته وصاح بى: "ألا تود أن ترد على أيها الخنزير؟". وهويت واقعاً على الأرض وهو ينهال على ضرباً بأقدامه فى رأسى وصدرى.. واستمر يضربنى مـدة طويلة حتى نهضت واقفاً على قدمى، فكف.

لن أنسى ما حييت ذلك الضابط النـازى، أبـداً لـن أنساه. فقد تكرر ضربه لى بعد ذلك أكثر من مرة، إذ كـان يأمرنى بالخروج إليه حين يلمحنى عبر الأسـلاك الشـائكة، فأذهب إليه وهناك يشرع فى ضربى بكل قوته فـى صـمت وتركيز. وقد تتساءلون "كيف ظللت على قيد الحياة بعد كـل ذلك؟". وأقول لكم إننى ـ قبل الحرب ـ وقبـل أن أعمـل بالمصنع اشتغلت حمالاً، أساعد فى تفريـغ المراكـب عنـد شاطىء نهر "كامى"، وكان بوسعى حينذاك أن أحمل جوالين من الملح، زنة الواحد منهما مائة كيلو جرام. صدقونى. كنت مفعماً بقوة هائلة وكان بنائى الجسمانى متيناً. ولكـن بقـائى على قيد الحياة لا يعود إلى ذلك أساساً، بل إلـى تصـميمى

على الحياة، وإلى إرادة المقاومة التى لم تتخل عنى لحظـة. كنت مشحوناً بالعزم على العودة إلى صفوف المقاتلين دفاعاً عن بلادنا لكى آخذ بثأرى من العدو وأقاتلـه حتـى الرمـق الأخير.

فيما بعد نقلونى من ذلك المعسكر ـ ولـم يكـن إلا مركزاً لتوزيع الأسرى ـ إلى معسكر آخر يبعد عـن الأول بحوالى مائة كيلو متر، أحاطته ـ مثلما فى المعسكر القـديم ـ الأعمدة العالية التى تضرب مع الأسلاك الشائكة سـوراً حول المكان الذى لا سقف له. وكانوا يصرفون لنا الطعـام على نفس النظام القديم، مع فارق واحد هو أنهم فيمـا نـدر كانوا يقدمون لنا قدحاً من الحبوب المتعفنة بدلاً من الجريش النيىء، أو يجرجرون إلى المعسكر الخيول النافقة ويتركـون للأسرى تقسيمها فيما بينهم. وكنا نأكل تلك الجيفـة لكـى لا نموت من الجوع، ومع ذلك كانت المئات منا تموت بسـبب ذلك الطعام.

حل شهر أكتوبر ببـرد قـارس فـوق التصـور، وتساقطت الأمطار بلا توقف، وامتد الصقيع يغطـى الأرض كل صباح. ولم يساعدنى فى ذلـك البـرد حتـى القمـيص

ومعطف الجندية الذى نزعته عن أحد زملائى الذين مـاتوا. وكنا قد اعتدنا على الجوع، بينما سمنت أبدان جنود الحراسة بما كانوا يسرقونه، فتشابهوا كأنهم من قالب واحـد: فرقـة منتخبة من الأنذال والسفلة. وفى صباح أحد الأيام، اقتـرب واحد منهم من الأسلاك الشائكة وذاع علينا بواسطة المترجم:

ـ سنقوم الآن بتوزيع الطعام، التوزيع سيجرى عند الناحية اليسرى. انصرف بعد ذلك. وظللنا واقفـين ننتظـر الطعام ساعة، ساعتين، ثلاثاً. مئات من الهياكـل العظميـة الحية واقفة ترتجف فى مهب الريح فى انتظار الطعام. وفجأة عند الناحية اليمنى من الأسوار الشائكة ـ لا اليسـرى كمـا قالوا ـ ظهر بعض الجنود وألقوا عبر الأسلاك بقطـع مـن لحم الخيل الفاسد. واندفعت الجموع التـى عضـها الجـوع الوحشى إلى الناحية الأخرى حيث قطع اللحم الملوثة بطـين الأرض. وقهقه الحراس ملء أفواههم للحظة، ثم دوت بحدة طلقات المدافع الرشاشة متصلة لا تنقطـع، وعـلا صـوت الصراخ والأنين من بين الأسرى المتساقطين وهرع من لـم تصبه الطلقات إلى الناحية الأخرى من السور، تاركين مـن خلفنا على الأرض زملاءنا من الجرحى والموتى.

بعد لحظات دنا من السور الضابط المسـئول عـن المعسكر وبرفقته المترجم. وأمسك الضابط نفسه عن الضحك وقال: "عند توزيع الطعام، أثـار بعضـكم فوضـى تـدعو للاستياء. وإذا تكرر ذلك مرة أخرى، سأعطى الأمر بإطلاق النار عليكم بلا رحمة أيها الروس الخنـازير. والآن نظفـوا المكان من القتلى والجرحى".

وأغرق الجنود الواقفون خلف الضابط فى الضحك . لقد سرتهم نزوة الضابط الطريفة التى روح بها عنهم.

وأخذنا فى صمت نجرجـر موتانـا إلـى خـارج المعسكر، ثم قمنا بدفنهم فى مكان غير بعيد فى الوادى.

* * *

كانت جراحى قد التأمت، لكنها عادت فانفتحت مـن جديد بسبب الرطوبة الدائمة والضرب، وكـانوا يضـربوننا بقبضاتهم وبالعصى ومؤخرات البنادق، وكـانوا يضـربوننا هكذا بلا سبب محدد، لمجرد دفع السأم عن أنفسهم. وكنا ننام على الوسخ مباشرة من دون المراتـب المحشـوة بـالقش، نتكدس فى كومة متلاصقة ونتجمد من البرد: الراقدون تحت فى الوحل، والراقدون فوقهم.. لم يكن نوماً وإنما عـذاب لا

يحتمله البشر فى الليل الممتد. وبالرغم من كل ذلـك، كنـت حياً، وبقيت على قيد الحياة.

ومرت الأيام على هذه الحـال، كأنهـا حلـم ثقيـل ومرهق. ومع انقضاء كل يوم كان ضعفى يتزايد حتى أصبح بوسع أى طفل صغير أن يطرحنى أرضاً بدفعة واحدة. كنت فى بعض اللحظات أنظر فزعـاً إلـى ذراعـى النحيفتـين المكسوتين بطبقة رقيقة للغاية من الجلد، وأتسـاءل: "كيـف يمكننى الهروب وأنا على هذه الحال؟". ولعنت نفسى فى تلك اللحظات لأننى لم أحاول أن أهرب فى الأيام الأولى. ألم يكن قتلى أثناء الهرب أهون من هذا العذاب البشع الذى أحياه؟

حل الشتاء، وكسحنا بين الثلوج مكاناً ننام فيه علـى الأرض المتجمدة من البرد. وفى الشتاء أخذ عددنا يتنـاقص باستمرار، حتى حل يوم أعلنت فيه إدارة المعسـكر أنهـا خلال أيام معدودة سترسل الأسرى إلى مناطق يعملون بهـا. ودبت الحياة فى الجميع، واستيقظ الأمل فى صدر كل منـا، أمل ضعيف حقاً، لكنه الأمل فى أن تلوح فرصـة للهـرب والنجاة من هذا الجحيم. وساد الهدوء فى تلك الليلة، هـدوء غريب، وكان الجو بارداً. عند حلول الفجـر تنـاهى إلـى

أسماعنا صوت صفير المدافع، وبدأ الأسـرى مـن حـولى يقلقون. وحين تكرر الصفير مرة أخرى صاح أحدنا بصوت مرتفع: "إنهم رجالنا. أيها الـزملاء.. رجالنـا يهـاجمون!". وحينذاك نهض كل أسير واقفاً، كأنما وحدهم أمر عسـكرى، نهض الذين عجزوا عن الوقوف لأيام متتالية. كان ذلك شيئاً يفوق التصور، وترددت وشوشات وهمـس حـار ونحيـب مكتوم، وبكى أحد الواقفين إلى جوارى بصوت نحيف كنهنهة النساء. وانحدرت الدموع على وجنتى أنا الآخر مـن شـدة انفعالى وشعورى بأن أهلنا قريبون منا.. انحدرت دمـوعى وتجمدت فى الهواء البارد. وشرع أحدنا ينشد بصوت واهن نشيد بلادنا، وتبعته أصواتنا الخافتـة، المتحشـرجة. فـتح الحراس نيران مدافعهم وبنادقهم علينا، ودوى الأمر الكريه: "انبطحوا". ورقدت ضاغطاً جسمى فى الثلوج وأنا أبكى مثل الطفل. لم تكن دموعى تعبيراً عن سعادتى فحسب، بل وعن اعتزازى وفخرى بشعبنا. حقاً كان بوسع النازيـة أن تقتلنـا ونحن عزل منهكين من الجوع والعذاب، وكان بوسـعها أن تسوموننا أصناف العذاب، لكنهم لم يتمكنوا من القضاء علـى أرواحنا أو كسرها، ولن يتمكنوا من ذلك أبداً. لقـد أخطـأوا

الهدف.. فنحن شعب لا يعرف الاستسلام.

* * *

فى تلك الليلة، لم أتمكن من الاستماع إلى قصة "جيراسيموف" حتى نهايتها. فقد استدعوه إلى هيئة الأركان على وجه السرعة. ولكننا التقينا مرة أخرى بعد أيام.

فاحت فى الخندق رائحة عفن وسائل "الراتينج" الذى تفرزه أشجار الصنوبر. جلس "جيراسيموف" على دكة وقد أحنى صدره إلى الأمام وعقد يديه العظميتين الضخمتين فوق ركبتيه وقد تشابكت أصابعه. وتطلعت إليه، وتصورت أنه يجلس هناك فى معسكر الأسرى، وأنه هناك بالتحديد قد اعتاد هذه الجلسة صامتاً وسارحاً فى أفكاره المضنية بلا نتيجة.

ـ تسألنى كيف تمكنت من الهروب؟ سأقول لك. فى تلك الليلة بعد أن سمعنا صفير المدافع، نمنا، وفى صباح اليوم التالى أرسلونا للعمل فى بناء التحصينات الألمانية. وكانت الثلوج قد بدأت فى الذوبان، وتساقطت الأمطار. رتبونا فى صفوف وساقونا بعيداً عن المعسكر فى اتجاه الشمال. وتكررت اللوحة الكئيبة القديمة إذ أخذ المنهكون منا

يتساقطون فى الطريق فيلاحقهم رصاص جنود العدو. بل إن أحد الضباط أطلق النار على أحدنا لا لشىء، إلا لأنه انحنى أثناء سيرنا والتقط حبة بطاطس متجمدة من الحقل الذى كنـا نعبره. كان اسمه "جونتشار"، من أوكرانيا كل جريمته أنـه التقط حبة البطاطس اللعينة تلك، وأراد اخفاءهـا. ولاحظـه الضابط الألمانى فاتجه نحوه دون أن ينبس بحرف، وأطلـق النار عليه من الخلف. وأوقفوا الطـابور وأعـادوا ترتيبـه. وصاح بنا الضابط "فلتعلموا أن كل ما تقع عليه أعينكم هنـا ملك للدولة الألمانية، وسيقتل على الفور كل من تسـول لـه نفسه أن يمد يده إلى شىء".

مر طريقنا بعد ذلك عبر إحدى القرى، وما أن رأت النسوة طابور الأسرى المنهكين حتى شرعن يلقين لنا قطـع الخبز وحبات البطاطس المسلوقة، وأسـعف الوقـت أحـدنا فالتقط من الأرض ما ألقته النسوة، ولم يلحق الآخرون بذلك. وفتح الحراس نيران مدافعهم على شبابيك البيوت وأمرونا أن نسرع الخطو. لكن الصبيان لا يهابون شيئاً، وهكذا أسرعوا أمامنا، يسبقوننا، وينتظرونا عند البيوت الأبعد فى الطريـق. وهناك تركوا لنا على الأرض كسر الخبـز، فكنـا نلتقطهـا

بسرعة أثناء سيرنا. وكانت حبة بطاطس كبيرة مسلوقة مـن نصيبى فاقتسمتها مع زميلى الذى مشى إلى جوارى، والـتهم كل منا حصته بقشرتها. ولعلى لم آكل فى حياتى كلها شـيئاً أشهى من حبة البطاطس تلك.

أخيراً، بلغنا إحدى الغابات، وهناك كـان علينـا أن نبنى التحصينات للعدو. وضاعف جيش العدو حراسته بشكل ملحوظ، وأعطوا كل منا معولاً لنبدأ العمـل. وتمنيـت لـو استطعت أن أهدم ما حولى بدلاً من اسـتكمال البنـاء فـى التحصينات لأعدائنا.

فى ذلك اليوم، مع حلول المساء كنت قد عقدت العزم على الهروب. طلعت من الحفرة التى كنـت أشـتغل بهـا والمعول بيدى اليسرى، ودنوت من الحـارس الـذى وقـف قريبى.. وكان الباقون يقفون عند أخدود بعيـد، ولـم يكـن بالقرب منى أحد سوى ذلك الحارس. اقتربـت منـه وأنـا أغمغم: "لقد انكسر المعول. انظر..". ولمع فى ذهنى للحظة، أنه إذا لم تكفنى قوتى لإسقاطه من أول ضربة فإنه سـيقتلنى لا محالة. وأغاب الظن أن الحارس لاحظ شيئاً غريبـاً فـى التعبير المرتسم على وجهى لأنه هز كتفه، وشـرع يخلـع

حزام مدفعه المعلق إلى كتفه، وأسرعت فهويت بمعولى على وجهه، ووجدته يهوى منطرحاً على ظهره دون أن يند عنـه صوت. لقد أسعفتنى قوتى رغم كل شـىء. وأصـبح فـى حوزتى مدفع، وثلاثة شرائط من الذخيرة. وصرت أعـدو، وأعدو، دون أن ألتفت إلى الخلف، حتى اكتشفت أننى لم أعد قادراً على الجرى، لقد استنفدت كل قواى. حينـذاك توقفـت والتقطت أنفاسى ومن جديد أخذت بالكاد أهـرول، والغابـة تزداد كثافة من حولى كلما ابتعدت عن الوادى. لا أذكر كـم من المرات وقعت ونهضت من جديد، ولكنى مع كل دقيقـة كانت تمر، كنت أصبح أبعد فأبعد وأنا أشهق وأكاد أختنق من التعب. أخيراً اخترقت الدغل الكثيف وبلغت الجانب الآخـر من التل، وحينذاك فقط أخذت تتردد من بعيد أصوات طلقات المدافع الرشاشة متلاحقة وأصوات صياح جنود العدو، غير أن اللحاق بى كان قد أصبح صعباً.

أخذ بياض الفجر يخالط ظلمة آخر الليل فى السماء، وعلى الرغم من ذلك فقد احتطت واحتفظت لنفسـى بطلقـة أخيرة فى حالة إذا ما وقع العدو علـى أثـرى ولاحقنـى. وأنعشتنى هذه الفكرة: لن أصبح أسيراً عندهم حياً أو ميتـاً.

وواصلت سيرى وأنا أكثر هدوءاً وحذراً. وقضيت ليلتى تلك فى الغابة، على الرغم من أن إحدى القرى لاحت لى علـى بعد نصف كيلو متر، لكنى خفت أن اتجه إليها فأقع فى يـد الألمان.

فى اليوم التالى، عثر الفدائيون من رجالنـا علـى. وقضيت معهم أسبوعين فـى خنـدق تحـت الأرض حتـى استعدت قوتى، وتحسنت صحتى. وقد عاملنى الفدائيون فـى بادىء الأمر بحذر وريبة، رغم أنى عرضت عليهم بطـاقتى الحزبية، وفيما بعد حين بدأت أقوم معهم بالعمليات الفدائيـة تبدلت فكرتهم عنى. وشرعت ـ فى الغابات وبين الأحراش ـ أحصى عدد من صرعتهم من جنـود العـدو، ومازلـت أواصل ذلك حتى الآن، وقد أوشك الرقم علـى أن يصـبح مائة.. نعم.. مائة قتيل من أعداء بلادى.

فى شهر يناير، قام زملائى من الفدائيين بنقلى إلـى الخطوط الخلفية. هناك مكثت شهراً فى المستشفى العسكرى، فاخرجوا الشظية من كتفى، أما الروماتيزم وبقية الأمـراض الأخرى التى أصابتنى فى المعسكر فسأعالج منهـا بعـد أن تنتهى الحرب. بعد العلاج أعطونى إجازة أسبوعاً للنقاهـة،

قالوا لى: "اذهب فاسترح فى بيتك قليلاً". وقد فعلت. لكنى لم أتحمل البقاء بين أهلى أكثر من أسبوع واحـد. إذ أرقتنـى الرغبة فى العودة إلى الجبهة. نعـم. ولا شـك أن وجـود الإنسان فى بيته ووسط أهله أمر إنسانى، لكنى كنت أحـس طيلة الوقت أننى أفتقد نفسى ومكانى الحقيقى هنا فى الجبهـة وإلى النهاية.

* * *

ودعت "جيراسيموف" عند مدخل الخندق. وتطلع هو إلى الممر الممتد فى الغابة غارقاً فى أشعة الشـمس، وقـال بترو: "لقد تعلمت أن القتال والحرب بالمعنى الصحيح هـى: الحب والكراهية. إن الحرب محك من نوع خـاص، فهـى تشحذ كل مشاعر الإنسان وتجعلها رهيفة إلى أقصى حد. قد يبدو من الغريب أن يجتمع الحب والكراهية معاً، خاصـة أن المثل السائر يقول: "عبثاً تشد الحصان والوعل الهياب إلـى عربة واحدة"، لكننا شددنا هذين الشعورين المتنـافرين إلـى عربة الحرب، بل إنهما يدفعان بالعربة إلى الأمام على أفضل وجه. أنا لا أطيق جنود النازية لكل ما اقترفـوه فـى حـق بلادى، وفى حقى شخصياً. لكنى فى نفس الوقت أحب وطنى

من أعماق فؤادى، وأكره أن أرى بلادى تحت وطأة الاحتلال. وهذا ما يدفعنا جميعاً إلى خوض المعارك بعنف شـديد. إن هذين الشعورين يتجسدان فى عملنا وهما اللذان سيقودانا إلى النصر. إننا نعشق بلادنا، ونحمل كراهيتنا علـى أطـراف حرابنا. عذراً إذا بدت كلماتى معقدة أو بليغة. لكنـى أفكـر على هذا النحو.

أنهى الملازم "جيراسيموف" حديثه،، وابتسم، للمـرة الأولى منذ تعارفنا، بسمة بسيطة وقريبة للقلب مثـل بسـمة الأولاد.

الأمنية

ـ ماما.. انظرى.. رجل هناك أخرج لى لسانه.

ـ لا تهتمى به، الأرجح أنه يمازحك.

ـ لكن ها هو يخرج لى لسانه مرة أخرى.

ـ دعيه يفعل ما يشاء ولا تنظرى ناحيته.

ـ أوه يا ماما.. إنه يتطلع نحوى الآن.. وسـيخرج لكِ أنتِ أيضاً لسانه!

ـ بس يا بنت أنت كل كلامك اختلاق.

ـ لكنه يتقدم نحونا يا ماما!

ـ أين هو؟ من مِن هؤلاء؟

ـ هذا هو.

ـ أوه! كوستيا! يا لها من مفاجأة!

ـ مرحباً.. أ.. أنا.. أهلاً، إنى أنظر إليكِ فـأتحير: أهو أنتِ؟ أم أخرى تشبهك تماماً؟

ـ فعلاً يا كوستيا مفاجأة مذهلة، كأن ثلجاً سقط على

رأسى.

ـ أرأيت يا ماما؟ وأنت قلت أنى أخترع من دماغى، وأن كل كلامى اختلاق.

ـ أهلاً يا كوستيا.

ـ إن نظرى ـ على أية حال ـ لم يخطئك يا مدام.

ـ مدام؟! لم تخاطبنى بشكل رسمى يا كوستيا؟

ـ آ.. لا.. فقط.. سهواً.. لقد استطعت أن أميـزك، تغيرت فقط تسريحة شعرك ولونه.

ـ ماما.. كان شـعرك أشـقر.. والآن كسـتنائى.. مضبوط؟

ـ وأنا أيضاً أذكر أن شعرك كان أشقر يـا مـدام.. آسف.. قصدى أنك كنت شقراء.

ـ نعم. وقتها لم يكن أحد يثق فى أن ذلك هو اللـون الطبيعى لشعرى. كانوا يقولون لى: "هذه صبغة"! والآن وقد صبغت شعرى بالفعل فلا أحد يخامره الشك فى أن هذا هـو اللون الطبيعى.. كم من الأعوام مرت ولم نلتق يا كوسـتيا؟

كم.. يا كوستيا؟

ـ منذ اثنى عشر عاماً، أو علـى الأرجـح أربعـة عشر.

ـ عمى.. وأنا قريباً سأتم الست سنوات.

ـ لن تتميها بهذه السرعة.. سوف تبلغين السادسـة، لكن بعد عام كامل!

ـ طفلتك مستعجلة.

ـ أنت كذلك يا كوستيا تستعجل الزمن. فقد مـرت تسع سنوات لم نر فيها بعضنا البعض، وإذا أردت الدقة، فقد مضت تسع سنوات وشهران ونحن لا نلتقى.. لكن لم يمـر بعد، لا اثنا عشر عاماً ولا أربعة عشر، لكنك كنـت هكـذا دائماً.. مستعجلاً..

ـ ربما.. محتمل أنكِ على حق.. بالفعل إنها تقريباً.. تسع سنوات وشهران..

ـ بالضبط. فقد حسـبتها بالدقـة ذات يـوم.. بـل بصراحة.. غالباً ما كنت أحسب تلك الأيام وهى تمر. نعم.. تسعة أعوام وشهران.

ـ ماما.. متى يصبح عمرى تسع سنوات وشهران؟

ـ بعد أربع سنوات، وبعد ذلك ستبلغين سنى.

ـ وكم عمرك يا ماما؟

ـ كثير.

ـ كم؟ مائة سنة؟

ـ لم أبلغ المائة بعد. أصغر شوية صغيرة، عمـرى سبع وعشرون سنة.

ـ وما رأيك يا لينا أننى حين أتطلع إليكِ الآن، يخيل إلى أن شيئاً لم يتبدل فيك؟

ـ يخيل إليك فقط. على أية حال شكراً لـك علـى المجاملة.

ـ وما اسم طفلتك؟

ـ ناستيا.. هل تذكر يا كوستيا.. كنـت تقـول لـى حينذاك إن "ناستيا" هو أجمل اسم فى العالم. بل وكنت تتحسر لأن اسمى "لينا" وليس "ناستيا".

ـ حقاً؟

ـ كثيراً ما رددتَ ذلك، وحينمـا أنجبـت، سـميت طفلتى "ناستيا"، وها هى تقف أمامك بنتاً غير مطيعة تحمـل "عروسة" على يدها.

ـ عمى.. هذه "العروسة" هى ابنتى، واسمها "كاتيـا" لأن كل العرائس على اسم "كاتيا"..

ـ أفهم من ذلك أنكِ صرت جدة يا لينا؟

ـ نعم. صرت جدة. وأنت يا كوستيا هل صرت أباً لصبى يا ترى أم لبنت؟

ـ لا صبى، ولا بنت، بل أنـى لسـت متزوجـاً.. الحقيقة كنت..

ـ كوستيا.. يا له من اسم.. كوستيا.. كوستيا!

ـ ماذا.. تكلمى يا لينا؟

ـ لا شىء.. ببساطة كنت أقلعت عن هـذا الاسـم. "كوستيا".. أقلعت عنه..

ـ ماما.. "عروستى" انقطعت رجلها.

ـ لا تضيعيها.. هاتى أضعها أحسن فى حقيبة يدى،

وحين نصل إلى البيت سأصلحها لكِ.

ـ لينا.. أردت أن اسألك..

ـ ماذا؟ اسأل.

ـ هل تذكرين، عندما سافرنا معاً.. أظن أننـا كنـا سافرنا إلى مدينة "تساريتسينا"، أم أننا سافرنا حينـذاك إلـى "كراتوفا"؟

ـ "تساريتسينا".

ـ ذاكرتك قوية. فى مساء ذلك اليوم، وكانت الـدنيا قد أعتمت، جرينا معاً إلى محطة القطار.

ـ مازلت تذكر على أية حال يا كوسـتيا، سـاعتها كنت أنت مستعجلاً جداً.

ـ نعم. كنت ذاهباً إلى البيت.

ـ وأنا وقتها كنت أعيش فى بيت الطالبات.

ـ خشيت أن اتأخر فتقلق أمى على.

ـ كان بوسعك أن تتصل بها تليفونياً، هكذا فكرت أنا ساعتها، لكنى لم أقل لك ذلك. خجلت.

ـ بالفعل، كان بوسعى أن أتصل بها. لا أدرى لماذا لم تخطر ببالى هذه الفكرة؟ ربما كانت هناك أسباب.

ـ ربما، يا كوستيا.. لا أدرى.

ـ طيب.. الآن أريد أن اسألك عـن شـىء آخـر. أتعرفين عن ماذا؟

ـ أخمن تقريباً.. فى ذلك المساء حلمت بأمنية واحدة وقلت لنفسى:

إذا لحقنا بالقطار قبل أن يتحرك من المحطة، فسوف تتحقق أمنيتى، أما إذا لم نلحق به.. فلن ترى أمنيتى النـور. وقد ركضنا حينذاك إلى درجة ظننت معها أن قلبى سـيتقطع بين ضلوعى.

ـ ولكن.. ألم نلحق بالقطار؟

ـ نعم، لحقنا به، لكن أمنيتى لم تتحقق!

ـ شىء مؤسف بالطبع. جميل لو أن الأمنية تحققت.

ـ جميل؟! أتقول هذا وأنت لا تدرى أية أمنية كانت؟

ـ بالفعل. ما الذى تمنيته حينـذاك؟ هـل مازلـت

تذكرين؟

ـ طبعاً مازلت أذكر، لكن هذا لا يعنـى أى شـىء الآن..

ـ ومع ذلك، أود لو أعرف.

ـ عمى أتعلم.. فى البيت يوجد عندنا بابا.

ـ دقائق وسوف نمضى إلى بيتنا يا حبيبتى.

ـ أرجوكِ أن تتكلمى.. ماذا تمنيت حينذاك؟

ـ الآن.. لم يعد ممكناً الكلام عن ذلك يا كوستيا.

ـ لماذا؟ لم لا ترغبين فـى الحـديث؟ أتخـافين ألا أفهمك؟

ـ ما الذى يمكن أن يخيفنى الآن يا كوسـتيا؟ مـاذا يمكن أن أخشى الآن؟

ـ إذن قولى لى.

ـ لا.

ـ لماذا؟

ـ لأنه لم يمر أحد عشر عاماً، ولا أربعة عشر، لكن تسع سنوات وشهران بالضبط، ولأننا حينذاك لم نسافر إلـى "تساريتسينا" أو إلى "كراتوفا" بـل سـافرنا بالتحديـد إلـى "إيركوتسك"، كذلك لأننى صرت أمـاً لطفلـة ـ لا داعـى للشقاوة يا ناستيا ـ سنذهب حالاً، وكذلك لأنه يوجـد "بابـا" الآن، وهو ينتظرنا فى البيت.

ـ أفهم.. ومع ذلك أرجو أن تقولى لى.. ماذا تمنيت حينذاك؟

ـ "'اكتتك" يا عمى.. مقطوع منها زرار.

ـ عارف.. شكراً يا "كاسيوشا".

ـ ليس اسمى "كاسيوشا"..

ـ آسف.. غلطة لسان.

ـ صافحى عمك يا ناستيا، ودعيـه، واضـح أنـه مستعجل.

ـ إطلاقاً. بل وليس هناك مكان أتعجل الذهاب إليه.

ـ ناستيا.. هيا قولى لعمك مع السلامة.

ـ مع السلامة يا عمى.

ـ لكن صدقينى.. حقيقة.. لست مستعجلاً.

ـ نعم، ولكن هناك من ينتظرنا فـى البيـت. مـع السلامة يا كوستيا.

ـ لينا.. هل يمكن.. هل يمكن.. هل تسمحين لى أن أتصل بك؟ ما هو رقم تليفونك؟

ـ وما الداعى إلى ذلك؟

ـ ببساطة أود أن أتصل بك..

ـ لماذا؟

ـ أنا نفسى لا أدرى لماذا.. لكن ببساطة هكذا..

ـ لا.. لا داعى يا كوستيا.

ـ ماما.. أنتِ نسيت رقم التليفون؟ أنا أقدر أقولـه.. "٢٧٣٨٠".. مضبوط؟

ـ ماذا؟ قوليه مرة أخرى، لم أسمعه جيداً.

ـ ولا داعى لسماعه. أتمنى لك كل خير يا كوستيا.

ـ لينا. وهل تذكرين.. لقد ذهبنا معاً حينـذاك إلـى معرض الفضاء. لا أعرف ما الذى دعانا إلى ذلك حينهـا؟ لكنى أذكر أننا كنا معاً. هل تذكرين؟

ـ بالطبع. بل وأذكر السبب الذى دعانا حينذاك إلى الذهاب إلى المعرض.. ومع هذا فلم يعد لكل ذلـك معنـى الآن.. مع السلامة.

ـ ماما.

ـ ماذا يا حبيبتى؟

ـ عمى.. يتابعنا بعينيه.

ـ لا تديرى وجهك نحوه

زهرة الجريس

ذات يوم فردت الطفلة بانيا ذراعيها وراحت تعبـر جدول الماء فوق جذع شجرة يصل ما بين الضفتين. بعد ذلك امتدت الطريق منحنية إلى أسفل. شاهدت بانيـا فـى ذلـك المنخفض أكمة من الشجيرات. من جديد ترتفع الطريق. عند الرابية العالية طالعت بانيا أشجار البتولا، وشـاهدت الحقـل القديم المهمل الممتد من خلف الأشجار ووسط الغابات.

قرب أشجار البتولا، كانت ثمار الفراولـة الحلـوة، وكانت قليلة حقاً.. لكن أمن المعقول أن تمر بانيا قربهـا ولا تتذوقها؟ كلا بالطبع. الفراولة أولاً، والحقل ثانياً، فهو بـاق ولن يجرى منها.

هكذا أخذت بانيا تتطلع إلى الحقل بعد أن أكلت مـن الفراولة، هذا الحقل الذى ظل يعيش وحده حيث نسيه الناس. نظرت إليه كان ممتلئاً كله بزهور الجريس الزرقاء، الناميـة على هيئة أجراس تجعلك تتخيل أن لها رنيناً مسموعاً. يكفى أن ترى هذه الزهور الرائعة، مرة واحدة فلا تنسـاها إلـى الأبد. تأملها، ولو مرة واحدة، ثم أغمض عينيك، ستراها فى

الحال مشتعلة فى خيالك، زرقاء مثل الفوانيس أو النجوم. بل إن السماء ذاتها لا تضيئها كل تلك النجوم، ولا تكـون فـى جمال هذا الحقل. وأنت لو شاهدته فسوف لا يفارق أحلامك طوال الليل، وستصبغ زهراته الحلم بلونها الأزرق الخفيف، وسيكون حلمك مجنحاً دون شك. لعل السماء بنجومها هـى التى تشبه هذا الحقل بزهوره.

أخذت بانيا تتأمل حقلها ذاك. وفجـأة لمحـت فيـه جناحى طائر كبيرين، رقد أحدهما دون حراك كأنمـا هـو مكسور، وانتصب الآخر بشكل عمودى. ولـم يكـن هـذان الجناحان لطائر.. لكن لإنسان!

رجل جلس على الأرض، معتمـداً علـى ذراعيـه، وجهه شاحب كأنه يعانى من الألم. كان يتطلع نحو السـماء. لم تكن فيها سحابة واحدة أو أى شىء يستحق الرؤية.

ساور الشك بانيا، ترى هل ذلك الكائن إنسان أم لا؟ وسرعان ما فطنت إلى أنه إنسان بالفعل. إن له وجهاً بشرياً. لكن من يعرف؟ ربما فى مكان ما توجد طيور ذات وجـوه بشرية. إنها تذكر مكنة الحياكة الملقاة فى المخزن العلـوى فى بيت جدتها. ألم يكن مرسوماً عليها طائر ذو وجه بشرى؟

نعم. لكن لهذا الطائر الجالس فى الحقل ذراعين أيضـاً. لـه جناحان.. و.. ذراعان، وبالإضافة إلى ذلك فهو قادر علـى الكلام لأنه حين رأى بانيا شرع يئن ثم قال لها:

ـ لا تخافى لقد التوى جناحى. اقتربى منى.

كان يمكن لبانيا أن تجرى هاربة، لكنها اقتربت منـه وسألته:

ـ ماذا بك؟ هل أصبت برضوض؟

أجاب الإنسان الطائر:

ـ ساقى.

قالت بانيا مشيرة إلى الجناح:

ـ و.. وهذا؟

خافت بانيا أن تطلق على الجناح.. كلمة جناح، بـل وحتى حين صارت قريبة من الرجل فإنها لـم تنظـر مـرة واحدة صوب جناحه. نعم.. أليس تأمل عاهـات الآخـرين عيباً؟

قال الرجل:

ـ كذلك التوى جناحى، لست أفهم كيف حدث هـذا. كنت أطير بصورة رائعة، وفجأة كأن طائراً ضـربنى. لـم أتبينه بوضوح، لكن يخيل إلى أنه طـائر رمـادى ضـخم. أدارنى من شدة الضربة، فتعلقت بالسماء، وألقى بـى علـى الشجر، فوجدت نفسى هنا.

سألت بانيا وهى تنظر إلى وجهه:

ـ هل أحضر إليك حليباً؟

نظرت فقط إلى وجهه، ورقبته ذات التجاعيـد، لأن جسمه لم يكن يشبه جسم الإنسان، كانت بقية جسـمه كأنمـا مصبوبة فى رداء رياضى ـ لكن من الـريش ـ مشـدودة بشرائط من المطاط.

سألته بانيا:

ـ من أنت؟

وبدا الإنسان الطائر وكأن الدهشـة اسـتولت عليـه وقال:

ـ من أنا؟ ألا ترين من أنا؟

صاحت بانيا:

ـ كلا. أنا لا أقصد هذا. ربما ليس مـن حقـى أن أكلمك عن هذا، لكن أنا أقصد هل أنت طيب القلب أم لا؟

أجابها دون أن يبتسم:

ـ طيب القلب.

ـ آه!

اطمأنت بانيا وانتحت ركناً على العشب جلست عليه. ها هى قد عرفت أن الرجل الطائر طيب القلب ولذلك تجرأت قائلة:

ـ جئت إلى هنا أبحث عن زهـرة الجـريس ذات السبعة أوراق.

ـ ذات السبعة أوراق؟

ـ نعم. انظر حولك.. ستجد أن لكل زهرة جـريس خمس أوراق فقط، لكن هذه الزهرة توجد أحياناً نادرة بست أوراق، ونادراً جداً بسبع أوراق.

تحرك الرجل مهتزاً قليلاً، ثم بسط ذراعه، وفى نفس

اللحظة بان من خلف ظهره جناح ضخم وجبار يتمايل بريش أزرق اللون. صاح الرجل وهو يقتطف زهرة من الحقل:

ـ ها هى الزهرة السباعية.. خذيها.

اندهشت بانيا وقالت:

ـ نعم. إنها هى! أنت إذاً طيب القلـب حقـاً، لقـد عثرت عليها فوراً.. هـ.. هل آتى إليك بحليب؟

قال الرجل الطائر:

ـ لا. شكراً لك. فقط قولى لى ما اسمك؟

ـ اسمى بانيا.

ـ هل من الصعب أن أصل إلـى الغابـة بسـاقى العرجاء هذه؟ أتعرفين.. أخشى أن يتغضن جناحى هنـا.. آه لو استطعتِ أن تحضرى لى عصا جيدة، ولو كانت عوداً من الخشب مثل هذا كى أنهض معتمداً عليها.

قالت بانيا:

ـ لكن أليس من الأفضل أن أصنع لك كوخـاً مـن الخوص تبقى فيه هنا؟ أنا أستطيع ذلك وفى الكوخ سـوف لا

يبلك أى مطر. أما الطعام فسأحمله إليك، فأنا التـى أحلـب بقرتنا. أليس البقاء هنا أحسن؟ على أرضنا؟ لا تخـف مـن شىء.. ألم تر أبداً حقلاً مثل هذا؟

ـ كلا. إنه بالفعل حقل جميل.

قالت بانيا:

ـ قديماً كان الناس يزرعونه. الآن أهملوه لأنه فـى مكان بعيد. أتعرف.. لو كنت أنا صاحبة الأمر، لأخذتك معى إلى بيتى. إن ماما طيبة جداً. ولن تخاف منك، أما بابا فقـد سافر إلى "تايمير".

سرح الرجل الطائر بفكره فى شىء مـا. انتفضـت بانيا قائلة:

ـ آه.. لا تظن أنى ثرثارة.. لن أقص على أحد أى شىء، وحتى ماما، رغم أننا صديقتان هى تقـول لـى كـل أسرارها، وأنا كذلك، لكنى لن أحكى لها عنك. أو سأحكى لها فيما بعد حينما يشفى جناحك تماماً.

قال الإنسان الطائر:

ـ حقاً، كل شىء جميل فى هذا الحقل، وأنـا واثـق

أنك ما كنت لتتركينى وحدى هنا. كنت أحب لو بقيت هنـا، لكنهم سيبحثون عنى.

ـ آه!

اومأت بانيا برأسها علامة الفهم ثم قالت:

ـ بالطبع، لو أن الكثيرين يطيرون مثلك، فلابد مـن أن يراهم البعض. حينئذ سيكتبون عن ذلك فى الجرائد.

ونهضت بانيا وهى تقول:

ـ سآتى إليك بعصا من شجر البتولا. وما أن تفوهت بكلماتها تلك، حتى أسرعت إلى الغابة، وهناك شرعت تبحث عن عصا محنية الرأس، حتى يسـتطيع الرجـل أن يتوكـأ عليها. عصا لا تكون جافة فتنكسر، مناسبة ليست قصيرة ولا طويلة. بحثت عنها حتى وجدتها بالمقاس المطلوب. اعتمـد عليها الرجل ونهض. ورأته بانيا للمرة الأولى واقفـاً. كـان طويلاً، سماوى اللون، مصعر الخد. من خلف ظهـره بـدا جناحاه وبلغا الأرض بريشهما الأزرق الطويل، كان أحدهما منتصباً والآخر مدلى.

أصاب الفزع بانيا فسألته:

ـ هل يؤلمك جناحك؟

ـ ساقاى هى التى تؤلمنى..

ـ ربما تورمت، كان لابد من لفها.

ـ لا شىء لدى ألفها به.

ـ سآتى أنا بشىء ما. وجرت بانيا مسرعة.

صاح بها الإنسان الطائر:

ـ انتظرى.. انتظرى.

ـ سأجد شيئاً ما فى غمضـة عـين. وبالفعـل لـم تستغرق بانيا سوى لحظة، استدارت فيها هنا وهناك باحثـة عما يصلح للف ساق الرجل، وإذا به قد اختفى من الحقـل. وفكرت بانيا "ربما كان بين زهـرات الجـريس، أو خلـف الأعشاب العالية". ودارت كالنحلة فى الحقـل تبحـث عـن الإنسان الطائر، لكنها لم تجده. ولم تكن تعـرف كيـف.. أو بماذا تناديه؟

وخرت بانيا راقدة على الأعشاب وهى تبكى. بكـت وقتاً طويلاً حتى أراحها البكاء وخففت الدموع من حزنهـا،

فاستغرقت فى النوم.

بحثت الشمس حتى عثرت بأشـعتها علـى بانيـا، وأدفأتها، ثم حان وقت مغيب الشمس فغربت. واستيقظت بانيا من نومها، وإذا الدنيا ليل من حولها. استولت عليها رعـدة مفاجئة. الليل! قفزت وأخذت تجرى صوب البيت، إلا أنهـا توقفت عند أشجار البتولا على الطريق، توقفت واسـتدارت نحو الحقل ونادت بصوت خافت:

ـ هيه!

لم يرد أحد على ندائها الخافت الرقيق. وفـى هـذه اللحظة شاهدت بانيا نجمة تطير فى السماء لم تر مثلها مـن قبل، نجمة زرقاء كبيرة، اشتعلت مثل الأنوار البنغالية. راح الشرر يتساقط منها، لكنها لم تنطفىء، وظلت طـائرة مـدة طويلة.

كان من الممكن لبانيا فى تلك اللحظة أن تضمر فـى نفسها الكثير من الأمنيات التى تريد لها أن تتحقق، لكنها لـم تفكر فى ذلك ولم تعبأ به، فقد استولت عليها نشـوة وهـى تفكر: "لقد حلق وطار.. على الرغم من كل شـىء طـار".

واعتقدت بانيا أن تلك النجمة هى الرجل الطائر. نعم.. ومن الذى يستطيع أن يحلق هكذا؟ النجوم؟ كلا. لأن النجـوم إذا انفلتت من السماء تحترق على الفور. إنه هو. نعم. هو فقط.

هوامش

- " أبرامتسيفا": ضاحية قرب مدينة "زاجورسـك"، وكانت فى أواخر القرن التاسع عشر مركزاً هامـاً للفنـانين الروس. (المترجم).

-"رادانيجيسكى": مشتقة من "رادانيج" اسم المدينـة الروسية القديمة التى ظهرت ما بين القرن ١٤ ـ ١٦، ثـم اندثرت، وقامت وتوسعت مكانها مدينة "زاجورسـك" التـى تضم عدداً من أشهر الكنائس الروسية وغيرها مـن الآثـار المعمارية. (المترجم).

-"جاجرى": من مدن جيورجيا، ميناء يطـل علـى البحر الأسود. (المترجم).

-جلفر: بطل رواية يوهان سويفت الشهيرة "جلفر فى بلاد العمالقة" المترجم.

-الأخوان جريموف: قامـا بتأسـيس علـم اللغـة الألمانية، صدرت لهما "أساطير للأسرة والأطفال" وترجمت إلى الروسية فى ١٨١٢، وكانت منتشرة حينذاك. المترجم.

-الجنية: جن فى الأساطير الروسية يظهر فى هيئـة امرأة جميلة، تعيش بنعش فى المقابر، وتنادى من يتردد على المقابر من الشباب، فيقعون فى غرامها، فتنفرد بهم، وحـين يستجيبون لندائها "ارفعوا جفنى.. أنى لا أرى"، تشرع فـى إضحاكهم، حتى يقعوا صرعى الضحك المتواصل. المترجم.

-الطيارة الورقية: وهى الطيارة التـى يلعـب بهـا الأطفال فيطلقونها فى السماء، وتسمى بالروسـية "الثعبـان الورقى" لأن خيطها يتلوى فى الهواء وهى ترتفـع، ويبـدو ورقها المشدود مثل رأس الثعبان. ولذلك يتخيل الكاتـب أن هذا الثعبان قد خرج من بيضة. المترجم.

-يلصق الروس شريط ورق بالشباك ليمنعوا تسرب الهواء البارد إلى الغرف. المترجم.

- الـ "كوبيك" أصغر وحدة فى العملـة السـوفيتية. المترجم.

- جيروم. ك. جيروم ـ مسرحى وروائى إنجليزى معروف، اشتهر بكتاباته الساخرة. ولـد فـى ١٨٥٩/٥/٢، وتوفى فى ١٩٢٧/٦/١٤. المترجم.

-الميليتسيا: جهاز الشرطة السوفيتى. المترجم.

-بود: وحدة وزن تساوى ١٦,٣٨ كيلو جرام. المترجم.

-من عادات الروس، أنه إذا تهيأ الإنسان للسفر، جلس معه الأهل والأصدقاء دقيقة صامتين، ليصبح طريقه طريق السلامة. المترجم.